التاريخ الإسلامي

-١-

قبل البعثة

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة السابعة

١٤١١هـ - ١٩٩١م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

مقـــدِّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه ومن سار على منهجه وبعد : فإن لكل أمّة تاريخاً تسجله من منطلق عقيدتها وواقع حياتها ، وتحرص على تنقيته من كل ما يخالف تلك العقيدة حتى يكون ناصعاً منسجماً مع ما تصبو إليه نفوس أبنائها ، وما تريد أن تنشأ عليه الأجيال في المستقبل ، هذا بالنسبة إلى كل أمم الأرض ، إلا الأمة المسلمة فإن تاريخها قد لعبت فيه الأيدي المنحرفة في الماضي ، وحرّفته أقلام المستعمرين وأنصارهم في الحاضر ، حتى غدا تبعاً لتاريخ الانحراف في الأدوار التي مرّت ، وشبيهاً بتاريخ أوربا في العصر الحديث ، يتماشى معه ، ويتممه على أرضنا التي نحيا عليها . ومع هذا فلم تبدأ الأقلام الحرة بعد تخط التاريخ الإسلامي بشكله النقي .

إن الأمة القوية تحاول أن تفرض لغتها وتاريخها على الأمم الضعيفة أو التي أخضعتها بالسيف ، ولقد طغت الدول الأوربية على البلدان الإسلامية في خلال القرون القليلة الماضية ، وفرضت تاريخها عليها ، وحاولت فرض لغتها أيضاً إلا أن وجود القرآن الكريم قد حال دون ذلك بالنسبة إلى اللغة ، أما التاريخ فقد بقي يدرَّس حتى بعد زوال الاستعمار في البلدان الإسلامية ، بل ويعلَّم في أكثر بلدان العالم ، يدرس تاريخاً أوربياً خالصاً ، وحتى التاريخ المحلي ، فإنه يعطى من وجهة نظر أوربا، ذلك لأن الأوربيين كانوا يسيطرون على أكثر أجزاء الكرة الأرضية ، وأصبح تاريخهم عالمياً حسب مصطلحهم ، لأن أكثر الدارسين كانوا يتجهون إلى أوربا يتلقون فيها العلم ، ويأخذون منها التوجيه ، ومن بين ذلك مادة التاريخ التي حرص عليها الأوربيون حرصاً شديداً ، وعملوا على توجيهها حسب وجهة نظرهم ومنطلقهم الخاص ، وعندما

يعود الدارسون إلى مناطقهم التي خرجوا منها ، فإنهم يسجلون ما تعلموا ، ويدرّسون ما أخذوا وما نهلوا ، وينشأ الجيل بعد الجيل على هذا التوجيه ، وتسطر الكتب ، وتصبح مراجع ومصادر لكل باحث جديد .

هذا التاريخ الذي يزعمون أنه عالمي لا ينطبق بالفعل إلا على أوربا ، ولا يشمل غيرها ، ويقسّم تاريخ العالم إلى ثلاثة أقسام تبعاً لما مرّ في أوربا ، وهذه الأقسام هي :

١ ـ التاريخ القديم : ويبدأ منذ معرفة الانسان الكتابة عام ٣٢٠٠ ق.م. وينتهي بسقوط مدينة روما بيد البرابرة الجرمان عام ٤٧٦ م ، ويمتاز أواخر هذا القسم من التاريخ بقيام امبراطوريات واسعة ، وظهور حضارات حسب المفهوم الأوربي .

أما المدة التي سبقت فتعرف باسم ما قبل التاريخ ، ويعدّون أن الإنسان كان فيها بدائياً متأخراً ، لا يعرف اللباس ، ولا يجيد النطق ، ولا يحسن التعبير ، يستر الشعر جسمه ، هذا ما يتفق مع مفهوم أوربا العلماني ، إذ لا يأخذون بعين الاعتبار الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله من القديم هداية البشر منذ أن خلق الناس في الأزمنة الغابرة .

٢ ـ التاريخ الوسيط : ويبدأ من سقوط روما عام ٤٧٦ م ، وينتهي بفتح القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ على يد السلطان محمد الفاتح العثماني ، ويمتاز هذا العصر بسيطرة الكنيسة ورجالات الإقطاع والجهل .

٣ ـ التاريخ الحديث : ويبدأ من فتح القسطنطينية ، وينتهي في الوقت الذي نعيش فيه ، ويتسم بالثورة الصناعية ، وانتشار العلم ، وقيام الحضارة الحديثة حسب المفهوم الأوربي الخاص ، كما يقسم هذا الجزء من التاريخ إلى قسمين :

أ ـ التاريخ الحديث : وينتهي بقيام الثورة الفرنسية عام ١١٩٣ هـ .

ب ـ التاريخ المعاصر: ويبدأ من قيام الثورة الفرنسية، ويمتد حتى وقتنا الحالي.

وإن نظرة واحدة إلى هذا التقسيم توضح لنا أن هذه الأحداث والسمات الخاصة بكل جزء منها إنما ينطبق على أوربا وحدها، ولا يتفق مع ما سواها.

في التاريخ القديم تتحدث أوربا العلمانية عن الحضارات القديمة، ونحن لا نعدّ هذه المظاهر في مفهومنا حضارات، وإنما مظهراً من مظاهر البناء، فالحضارة تتسم بالصفة الإنسانية، فإذا زالت عنها فإنما هي تسلّط وإرهاب، وما البناء الذي يعدّونه حضارة إلاّ بناء شيّدته أيد على جماجم إخوتها، ورفعته على جثث آلاف البشر، أُرغموا على العمل به، وأكرهوا على الكدّ فيه حتى لقوا حتفهم، والسوط على أظهرهم، والسيف مصلت على رؤوسهم. تعدّ أوربا ما بقي من آثار عمرانية حضارة، وما اندثر ضاع معه الناس وما شادوا ولو أنهم ملؤوا الخافقين عدالةً وسموّاً بالنفس، فكأن الظلم باقٍ والعدل زائل.

أما في التاريخ الوسيط الذي امتاز بالاقطاع وسيطرة الكنيسة والجهل في أوربا، فإن هذه الميزات لم تكن موجودة إلاّ في تلك القارة، فالكنيسة لم تكن مسيطرة إلا في أوربا، أما في بقية أنحاء العالم، فليست هناك من كنائس، وإن وجدت فأصحابها قلة، ولا يمكن لهم السيطرة، ولا يستطيعون الطغيان، وأما الاقطاع فلم يكن هناك إقطاع بالمفهوم الموجود في أوربا، وهو أن يكون عمال الأرض وفلاحوها يباعون ويشترون، ويتصرف بهم المالك كيف يشاء، يقتل من يرغب دون محاسب، ويرتكب من أعمال السوء مع أفراد أسر فلاحيه ما يبتغي دون ممانعة، وأما الجهل فلم يكن منتشراً في مكان آخر بالشكل الذي كان ينتشر في أوربا، وبصورة عامة غدت كلمة التاريخ الوسيط تعني التأخر والجهل والفوضى وسوء النظام والاستهتار بكل القيم، وإذا نظرنا إلى هذا الزمن الذي نتكلم عنه كيف كانت بلادنا الإسلامية فيه، فنلاحظ انتشار العلم وسيطرة النظام ووجود القيم، فالمدن عامرة بالمدارس والمكتبات، وهي قبلة

المتعلمين ، ومساجدها مراكز إشعاع ، هذا إضافة إلى الحضارة التي تتسم بالإنسانية بل تعدت إلى الرفق بالحيوان ، فالحضارة أعمال يبتكرها البشر، وتنظيم وتخطيط لخدمة الإنسان ، فإذا لم تخدمه فليست بحضارة .

لقد كان اهتمام الحضارة الإسلامية بالانسان والانسان وحده ،الأمر الذي لم يلتفت معه المسلمون إلى البناء والإشادة ، وإجبار الناس على العمل وإكراههم على مزاولة أعمال لا تخدمهم ، ولا تخدم عقيدتهم ، وإنما تخدم حكامهم ، كما فعل غيرهم ، وإنما انصرفوا إلى الدعوة والفتوحات التي كانت وسيلةً لنشر عقيدتهم فلم يخلّفوا أبنية ، ولم يتركوا قصوراً ، ونستطيع أن نعطي صورة بسيطة عن صور من الحضارة الإسلامية أيام رسول الله صلّى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده تجلت في العدل والمساواة وإحقاق الحق والاهتمام بمصالح الرعية بشكل تبقى مثلاً أعلى للحضارة لكل من يريد الخير للبشر، فعاش الناس يومذاك حياة سعيدة ملؤها الراحة والطمأنينة والأمن وتأمين الحاجات الضرورية ، ولم يلتفت المسؤولون آنذاك عما سوى ذلك من مظاهر تنهك الإنسان ، وليس فيها أية خدمة له ، ولا يشعر بأية سعادة في ظلها ، وإنما فرضت عليه ، وكان يئن من وطأتها . وعندما انتهت الفتوحات ، شيّد المسلمون مواضع لا لخدمة الحكام والرؤساء ، وإنما لخدمة رعاياهم وسعادتهم أماكن على الطرق العامة كانت مراكز للبريد ، ثم عرفت فيما بعد باسم (خانات) ، على الرغم من وجودها في وقت مبكر ، ولكن وصل إلينا هذا من آخر عهد له ، والخان كلمة مختصرة من (خاقان) وهو الأمير باللفظ التركي ، وهو الذي ينفق على هذه المراكز ، أو تقام باسمه ، وكانت هذه المراكز مضافات على الطرق يحق لكل مارّ أن يبقى فيها ثلاثة أيام تقدم له فيها الأطعمة والشراب ووسائل النوم والراحة وكل ما يحتاج دون مقابل ، وإلى جانب ذلك يُقدَّم لراحلته العلف في بناء مجاور ، وكان بين المركز والآخر مرحلة ، وهي تساوي الأربعين كيلومتراً تقريباً ، وهي مسيرة يوم آنذاك ، وقد توجد على مفترق الطرق وعندها تكون المسافة بين مركزين متتابعين أقل من ذلك ، وفي المدن كثير من هذه الخانات لكثرة زوّار

المدن وحاجاتهم المستمرة فيها ، ولا تزال آثار هذه الخانات قائمة إلى الآن ، سواء أكانت في المدن أم على الطرق ، وتعرف بأسمائها في أماكنها ، وإن زالت معالمها ، وهي في المدن على شكل طابقين ، وغالباً ما يستعمل الأول - وهو الأرضي - للحيوانات ، والثاني للمسافرين . وقد يكون بجانب كل خان دار للثياب فيما إذا اضطر أحد المسافرين إلى تغيير ثيابه لسبب من الأسباب كأن يصيبها شق أو تمزيق ، أو يلحقها أذى من زيت أو دهن ، فإنه يستبدلها بالقياس نفسه واللون نفسه والطراز نفسه ، ويترك ثيابه بلا مقابل ولا منّة ، ويُصلح المركز الثياب المتروكة ، وتُنظّف ، ويدبّر أمرها ، ويعتني بها ، لحاجة تستجد في المستقبل ، ولما ضعف المسلمون ، وسيطر عليهم غيرهم ، انهارت حضارتهم ، وأصبحت الخانات أماكن للحيوانات فقط ، وغدت كلمة خان تعني اصطبلاً . وتعدّى الأمر في هذه الحضارة فوصل إلى الخدم ، فكانت توجد في المدن دور تسمى دار (الزبادي) ، ومهمتها تقديم الآنية والأوعية إلى الخدم الذي كُسرت آنيتهم معهم وهم في طريقهم إلى جلب حاجات لسادتهم ، كي لا يجد هؤلاء الخدم عقوبة تصيبهم ، أو أذى ينالهم ، أو كلاماً قاسياً يسمعونه من أولئك السادة الذين ربما كان منهم الظالم القاسي أو الجاهل العاصي . وزاد الأمر على ذلك فوصل إلى الرفق بالحيوان ، فكان في كل مدينة ما يسمى بـ (مرج الحشيش) ، وهو مكان متسع مليء بالأعشاب ، محاط بالأسوار ، وفيه بعض الحظائر ، فإذا ما عجزت دابة عند فلاح في المنطقة عن العمل ، فإنه يرسلها إلى ذلك المكان بدلاً من أن يتركها في العراء فلربما عجزت عن الحركة ، وماتت جوعاً ، وربما كان في مكان قريب من السكن ، وعندها ينفسخ جسمها ، وتضرّ بصحة الأهالي ، أما إذا نقلت إلى « مرج الحشيش » ، وهو ما يشبه مأوى العجزة بالنسبة إلى البشر ، فيصبح القائمون على المركز مسؤولين عنها ، فإذا كانت تستطيع الرعي سائمة تركت وشأنها ترعى ، ولا تستطيع الخروج من المرج ، وإذا كان لا يمكنها ذلك ، وضعت في الحظائر ، وقُدّم لها العلف والماء ، حتى إذا انتهت حياتها ، نقلت إلى خارج دائرة السكن لتأكلها

سباع الفلاة ، أو ليردم عليها التراب ، ومن آثار هذه المروج وآخرها (مرجة الحشيش) في دمشق التي بقيت تحمل هذا الاسم حتى مدة قريبة ، ثم أصبحت ملعباً للرياضة ، فعرفت باسم « الملعب البلدي » ، ثم أقيمت في ذلك المكان أبنية المعرض ، وهذا المكان محصور بين نهر بردى وفرعه نهر « بانياس » والتقاء هذين النهرين ، أما الجهة الرابعة فكان محجوزاً ببناء الحظائر ، وهو مكان المتحف اليوم ، مقابل تكية السلطان سليمان العثماني المعروفة ، فهل عرفت حضارة من حضارات العالم تحمل أمثال هذه المعاني ؟

هذه هي المعاني الإنسانية التي يجب أن تتوفر للنهضة كي تسمى حضارة أو للمدنية حتى يطلق عليها هذا الاسم ، وهو ما يجب أن نرسّخه في نفوس الأجيال ، ونعلمهم إياها باستمرار لينشؤوا على مفهوم الحضارة الصحيح ، وما قدّمته أمتنا في هذا المجال، وما هي القيم التي تحملها الحضارة؟ ويجب ألا ننقل إلى تلك النفوس بعض مظاهر العلم أو البناء ونطلق عليه اسم حضارة ، كما هو بالمفهوم الاوربي فتضيع الحضارة بين بعض مظاهرها الضعيفة ويتيه النشء بين الاصطلاحات ومداخل التعاريف . هذا التاريخ بالنسبة إلى أوربا . أما التاريخ الإسلامي فيمكن أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام أيضاً حسب مثلنا وقيمنا وعقيدتنا ومفاهيمنا ، وهي :

١ ـ تاريخ ما قبل الإسلام : وقد استمر مدة طويلة كانت جاهلية بأكثر معالمها باستثناء جماعات عاشوا مع أنبيائهم ، وساروا على نهجهم واتبعوهم ، لذا يمكن أن نسمي هذه المدة بالجاهلية الأولى لما فيها من حيدان وانحراف عن منهج الله الذي أنزله على الرسل الذين بعثوا إلى شعوب تلك المدة من الزمن .

٢ ـ التاريخ الإسلامي : ويشمل حياة رسول الله صلّ الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ، وقد سار الخلفاء على النهج الذي رسمه الرسول الكريم ، لم يحيدوا عنه قيد أنملة ، وبعد ذلك بدأت زاوية الانحراف تظهر منذ انتهاء العهد الراشدي ، وبدأ مع الزمن يزداد انفراج زاوية الانحراف شيئاً فشيئاً

في العهدين الأموي والعباسي حتى طغت على الدائرة كلها في نهاية الدولة العباسية ، ويمكن أن نلاحظ أن تسجيلنا للتاريخ يجب أن يكون قبل الإسلام بأعوام قبل الهجرة ، والتاريخ الإسلامي بالأعوام الهجرية فقط ، ليكون لنا تاريخنا المستقل وشخصيتنا المتميزة .

٣ ـ التاريخ الحديث : وهو مرحلة الجاهلية الثانية حيث انحرف الحكام عن النهج الإسلامي ، وبدأت الحكومات تتخبط في الفوضى والجهل وتسير بالتبعية ، وإن كنا لا نستطيع أن نعد جميع الحكام بمستوى واحد ، فلربما كان بعضهم أقل انحرافاً من بعضهم الآخر ، وقد حكم في هذه المدة المماليك والعثمانيون ومن جاء بعدهم ، وإن ظهر أحد منهم بالصلاح والعمل لمصلحة الرعية إلا أنها كانت أياماً قليلة ثم لا تلبث الجاهلية أن تتحكم بالأمر ، ومع الأسف فقد اتخذ التقويم الميلادي تقويماً في هذه المدة الأمر الذي أحدث إزدواجية في تسجيل تاريخنا بصورة عامة ، إذ نسجل الأحداث حتى نهاية الدولة العباسية على أثر سقوط بغداد بيد المغول عام ٦٥٦هـ بالتقويم الهجري ، ونسجل بعد ذلك بالتقويم الميلادي ، وكذلك المدة التي سبقت هجرة رسول الله صلّ الله عليه وسلم .

هذا التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوربي،وبينهما فرق جوهري ، فيجب أن نفصل أحدهما عن الآخر لتتوضح عندنا الرؤية ، ولنتميز بشخصيتنا التي حرص بعضهم على إلحاقها بالغرب ، واستمر ذلك مدة ليست قصيرة من الزمن ، كما يجب أن نرسخ هذه الفروق بين الأجيال لتتمسك بتاريخها ، وتعتز به ، ويجب أن نوضح المعاني الحضارية التي عمل أسلافنا من أجلها ، وتوصلوا إلى أزهى الحضارة ، وقد خدموا بها العالم ، فأسرعوا في تقدمه أشواطاً إلى الأمام .

ومن خلال هذا فإننا سندرس التاريخ الإسلامي على النحو التالي :

١ ـ قبل البعثة .

٢ ـ السيرة .

٣ ـ الخلفاء الراشدون .

٤ ـ الحكومة الإسلامية .

٥ ـ العهد الأموي .

٦ ـ العهد العباسي .

٧ ـ عصر المماليك .

٨ ـ الدولة العثمانية .

٩ ـ العصر الحديث .

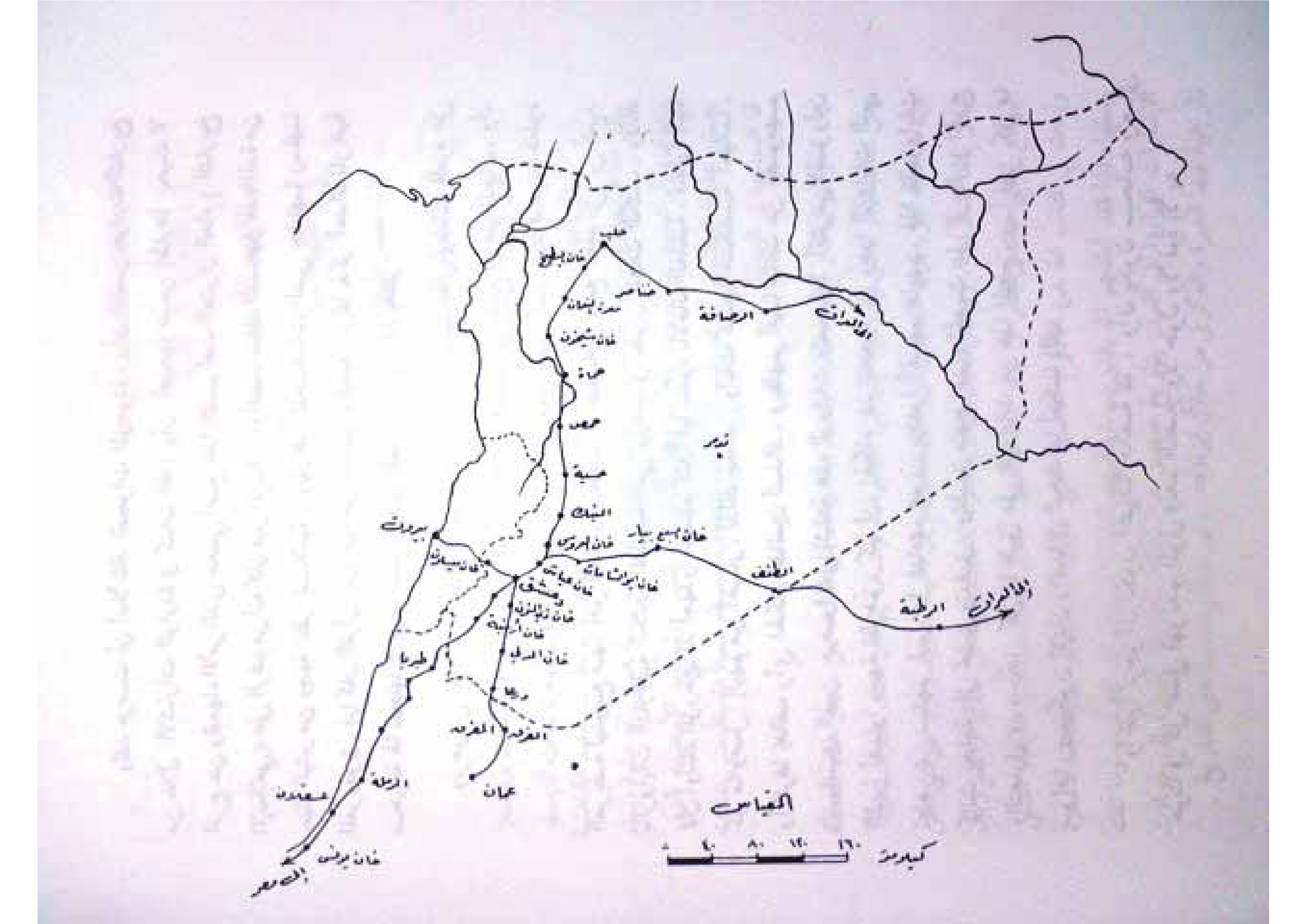
وعلى هذا فإن تاريخ العالم إنما كان تاريخاً جاهلياً سيطرت عليه الجاهلية بكل مفاهيمها وقيمها باستثناء مدة وجيزة هي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده، تغيرت فيها المفاهيم والقيم، وتبدلت الأرضية التي يعيش عليها المجتمع، ثم لم تلبث أن عادت الجاهلية تسيطر شيئاً فشيئاً حتى عادت لها هيمنتها في النهاية .

ولايزال التاريخ ـ وبخاصة القديم منه ـ يأخذ مقتطفات من سجل هذه المنطقة ومن تلك، الأمر الذي يبدو فيه كثير من الفجوات. إضافة إلى أن هناك تعارضاً بيناً بين ما يخطه المؤرخون الماديون من خلال نظرتهم إلى الحياة، ويفسرون كل شيء من خلال تلك النظرات، ويعدونه حقيقة، ويقدمونه للمجتمعات من خلال آرائهم وبين الواقع الذي عاشه البشر في تلك المدة والذي أشارت إليه بعض الآيات التي وردت في كتاب الله عن الأقوام الماضية التي خالفت أوامر الله، ورفضت دعوة رسلها، لذا فقد أخذهم الله بذنوبهم، وعاقبهم على ما اقترفوه من ذنوب، وما تلك الإشارات الواردة في القرآن بتاريخ مفصل عن منطقة ما، وإنما إشارة إلى حوادث تاريخية فيها العبرة والذكرى من خلال إيرادها، وهي تعطي ضوءاً على التاريخ .

ولقد حرصت أن أملأ تلك الفجوات الموجودة . وأن أتلمس حوادث التاريخ من خلال الاشارات الواردة في كتاب الله . وأن أضعها ضمن إطارها بحيث لا تخرج عن واقعها، الأمر الذي جعلني أضع هذا القسم تحت العنوان العام (التاريخ الإسلامي) على الرغم من أنه كان قبل الإسلام . وأقصد بذلك التسجيل لهذه المدة من حياة البشر من وجهة نظر إسلامية . وتأريخاً للجماعات التي جاءتها رسلها المعروفون . فما كان القرآن لترد فيه حوادث غير واقعية . وإنما يذكر أحداثاً تاريخية صحيحة لها سجلها في حياة البشر . وفيها العبرة لمن أراد أن يعتبر .

ونرجو من الله أن أستطيع تقديم خدمات لهذا التاريخ الذي وطدت العزم على إصداره ــ إن شاء الله ــ وأن يكون هذا حافزاً لغيري كي يتوسع في هذا المجال . وأن يقدم لأمته ما ترجوه ــ فأنا لا أدعي أنني قمت بعمل جليل كبير . وإنما قدمت الخطوط العريضة ليتوسع فيها أهل العلم وأصحاب الاختصاص ـ مع العلم أني لن أتقيد بالروايات التاريخية الكثيرة المتشعبة التي وردت في بطون أمهات الكتب . وذلك لأن أولئك المؤرخين قد أجهدوا أنفسهم كثيراً فيما سمّوه بالأمانة العلمية . فنقلوا إلينا كل ما وصل إليهم من أخبار . لذلك جاءت روايات كثيرة متناقضة أحياناً . وأكثرها يخالف رأي الحكام القائمين آنذاك . ويظهر أنها جاءت من خصومهم السياسيين الذين حرصوا على إشاعة هذه الروايات وتسجيلها أكثر من المسؤولين الذين أهملوا وجهة نظرهم . كما أن الحكام قد شجعوا وروّجوا الروايات التي تطعن بمن سبقهم ليبرروا قيامهم هم . ويرفعوا أنفسهم عليهم . لهذا فالروايات كانت بحاجة إلى تحقيق وتدقيق . وتطبيق منهج علماء الحديث على الرواة (الجرح والتعديل) . وسأقبل كل ما طبق على الروايات من هذا المنهج . وسأرفض كل ما سواها . وسيكون الإيمان رائدنا في البحث ما أمكننا ذلك .

وأخيراً نرجو أن تكون أعمالنا خالصة لله . وأن يكون سبحانه وتعالى عوننا في كل عمل فهو نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا به .



حلب
خناصر
معرة النعمان
الرصافة
إلى الفرات
خان شيخون
حماة
حمص
حسية
تدمر
النبك
بيروت
دمشق
طبريا
درعا
المفرق
عمان
الرملة
خان يونس
إلى مصر
الرطبة
إلى الفرات
المقياس
كيلومتر

الأمـــة المُسْـلِمَة

لما كنّا نؤرخ للأمة المسلمة فلا بدّ من أن نعطي فكرة عن الأمة وبنائها وعامل تكوينها قبل أن نبدأ بتسجيل تاريخها ونعطي فكرة عن عقيدتها في التاريخ .

الأمة جماعة من الناس عاشت بعقيدةٍ واحدةٍ على مدار التاريخ ، فما دامت العقيدة مستمرةً قائمةً فالأمة موجودة ، فالجماعات الذين اتبعوا الأنبياء الذين بعثوا على طول الزمن من آدم عليه السلام إلى محمد صلىٰ الله عليه وسلم ، وعاشوا بعد ذلك حسب هدي آخر الأنبياء حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، واعتقدوا بخالقهم ، وآمنوا بما أنزل الله إليهم من ربهم وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وطبّقوا ما جاءتهم به رسلهم من نور ، يؤلفون أمّةً واحدةً على مدى هذا التاريخ ، فهم جميعاً يعتقدون عقيدةً واحدة ، ويسيرون على نهجٍ واحد هو النهج الذي أتى به رسل الله ، فربهم واحد ، وفكرتهم واحدة ، وهم مستسلمون لأمر الله ، مسلمون لما بعث وبما قضى ، هذه الجماعة هي الأمة المسلمة التي تتميز عن غيرها بفكرتها التي تعيش بها ومن أجلها ، فالله سبحانه وتعالى بعد أن يعدد رسل الله والصالحين من عباده يقول : « إن هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاعبدون »[1] .

ولا ترتبط الأمة المسلمة ببقعةٍ معينةٍ من الأرض ، وإنما ساحة عملها الأرض كلها ، فحيثما تمكنت من إقامة حكم الله فذلك مقرها الأول ونقطة انبعاثها ، وبعد ذلك تتوسع دائرتها منه بالدعوة ونشر الفكرة حتى تشمل الأرض جميعها ، وما دامت لا تعمّ الفكرة الأرض كلها ، ولا تحكم كافةً بما أنزل الله

---

(١) الأنبياء : ٩٢ - ٩٣ .

فمهمة الأمة باقية ، وعليها واجب كبير ، وهو الجهاد في سبيل الله حتى تتمكن من تطبيق منهج الله في الدنيا قاطبة . والأرض في نظر الإسلام قسمان : ١ ـ دار الإسلام : وهي البقعة من العالم التي يطبق فيها منهج الله ، وإن لم يكن سكانها جميعهم من المسلمين . ٢ ـ دار الكفر : وهي المنطقة من الأرض التي لا تحكم بما أنزل الله ولو كان سكانها كلهم من المسلمين . وليست دار الكفر دار حرب ، وإنما دار الحرب جزء من دار الكفر ، أعلن إمام المسلمين عليها الحرب وأجاز فيها إجراء أحكام دار الحرب ، وتنقلب دار الكفر إلى دار حرب إذن بإذن الإمام تحت ظروف خاصة منها الوقوف في وجه الدعوة والضغط على المسلمين أو تعريف الأعداء على ثغراتهم ، وإعلان الحرب عليهم و . . . المسلم الموجود في دار الكفر عليه واجب الدعوة ، والعمل على نشر الفكرة ، والتمكين للمسلمين ، ولا يهاجر أحد من هؤلاء المسلمين القاطنين في دار الكفر إلا في حالات : ١ ـ إذا احتاج المسلمون إليه في دار الإسلام ـ إن وجدت ـ حاجة فردية أو عامة ، وتقتضي الدعوة وجوده هناك . ٢ ـ إذا كان لا يستطيع إقامة شعائره في دار الكفر ، فعليه آنذاك الهجرة والالتحاق بدار الإسلام ليعيش بين المسلمين ، يقوم بدوره ، ويؤدي عبادته هناك ، فأي شيء يمكن للمسلم أن يتساهل فيه سوى العبادة فإنه لا يمكنه أن يتركها أبداً أو يتساهل فيها وهو مسلّم بقواه العقلية ، أما ما يقوله بعض ضعاف النفوس من كتم الإيمان والتقية فيجب ألا يصل إلى العبادة أبداً ، ولا إلى ما حرم الله ، أو تحريم ما أحل وإحلال ما حرم،فإن وصل إلى ذلك فهو الكفر البواح . ٣ ـ إذا طرد من دار الكفر وأجبر على المغادرة [1] .

ولا ترتبط الأمة بالأصل ، فالخلاف يحدث بين أبناء الأصل الواحد إذا ما

---

(١) ولا يترتب على هذا التعريف في الوقت الحاضر أي إجراء عملي متعلق بالأحكام الفقهية لدار الإسلام أو دار الكفر لأن الطرف الأول غائب اليوم عن سطح الأرض والعلاقة متبادلة بين الطرفين . فإن غاب طرف اقتضى غياب الأحكام بالنسبة إلى الطرف الثاني ، ومن المعلوم أن المواقف العملية لتطبيق الأحكام الفقهية بدار الإسلام ودار الكفر إنما يتخذها إمام المسلمين وليست عامة أفراد المسلمين بصفتهم الفردية .

كانوا على عقيدتين متباينتين فلقد حدث الخلاف على أشده بين المسلمين من العرب وأبناء جلدتهم المشركين وأفراد قبيلتهم قريش وحتى أولاد عمومتهم وإخوتهم وأبنائهم ، وكم التقى سيفان أحدهما بيد الأب والآخر يحمله الابن فرّقت بينهما العقيدة وباعد بينهما الفكر ، وما كان الخلاف إلا بسبب العقيدة ، إذ لم يكن الأصل ليربط بين أتباع عقيدتين أو ليجمع بين جماعتين مختلفتين في الفكرة وينتمون إليه مهما كانت الخلافات واهية والأسباب بسيطة ، ولا توجد مرحلة من مراحل التاريخ إلا وفيها النماذج الكثيرة من الخلافات الكبيرة التي قامت بين أبناء العقائد المتباينة والذين يرتبطون بأصل واحد بل وقبيلةٍ واحدةٍ وعشيرةٍ واحدةٍ وأسرةٍ واحدة .

ولا ترتبط الأمة باللغة ، فاللغة لسان مجموعة من الناس ، قد يلتقون بأصلٍ واحدٍ ، وقد يوحّد بينهم فكر خاص ، فإذا كان الأصل هو الذي يجمع انطبق عليها ما انطبق عليه ، وما الصراع الدائم الذي يقع بين أبناء الشعب الواحد إلا نتيجة خلاف العقيدة ، ويمكن أن نلحظ على مدى تاريخنا أن أفراداً نلتقي وإياهم بالأصل ونفترق بالفكر والعقيدة نجتمع بطرفٍ من اللسان الذي أوجده الأصل ونختلف بطرف آخر وهو ما فرقتنا فيه العقيدة فيبقى الطرف الثاني هو الغالب وهو المتميز باستمرار ، فمنذ صدر الإسلام كان أغلب التراجمة من الفارسية وإليها ممن يدين بالمجوسية ويتفق مع الفرس بالمبدأ لذا حرص على تعلم لغتهم ، ويترجم من الرومية وإليها من يعتنق النصرانية ويلتقي مع الروم بالعقيدة لذا حرص على تعلم لغتهم ، واستمر ذلك حتى عُرّبت الدواوين أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، وحتى في العصر الحديث نجد أن أكثر من استعملته فرنسا في بلاد الشام الشمالية ممن كانوا يجيدون لغتها وهم ممن كانوا يعتنقون عقيدتها ، ولارتباطهم بالعقيدة بعد تعلم لغتها ، على حين لم يفعل ذلك من لا يتصل بها بفكرة ولا يلتقي معها بمبدأ ، ولو فرضت اللغة الفرنسية على الشعب لما أقبل عليها أحد سوى أبناء دينها اللهم إذا استثنينا أصحاب المصالح وأرباب التجارة ، وما استعملته فرنسا في مناطق نفوذها سارت عليه انكلترا

وإسبانيا وإيطاليا وبلجيكا والبرتغال وألمانيا وهولنده وروسيا في الجهات التي سيطرت عليها . إن الذين يعتنقون عقيدة أمة يحرصون على تعلم لغتها ، وهذا ما نشاهده في أكثر أرجاء العالم الإسلامي ، وهو أن أكثر الذين يعتنقون العقيدة الإسلامية فكراً ، ويتخذونها منهجاً ، ويسعون في تطبيقها على أنفسهم وعلى أسرهم وعلى مجتمعاتهم إنما يتعلمون العربية ، ويحرصون على التحدث فيها على أنها لغة القرآن الكريم أي لغة العقيدة التي يدينون بها ، فاللغة إذن لغة العقيدة وليست لغة الأصل الواحد التي نشأت على أرض معينة ، وارتبطت بالبشر الذين عاشوا على تلك الأرض وتطورت معهم أو واكبت اللغة الأصل على مر الزمن - حسب زعم بعضهم - .

وليس التاريخ بأكثر ربطاً للمجتمعات من اللغة ، فالتاريخ أصلاً تاريخ الأمة ، والأمة مرتبطة بالعقيدة ، فالتاريخ يتحدث عن البشر الذين يحملون تلك العقيدة ، ومن منطلق العقيدة تُرسم الخطوط العريضة للتاريخ ، فالمراحل التي تطبق فيها العقيدة يراها أتباعها ما داموا من حملتها ، ومن المتأثرين بها ، والداعين لها ، والحريصين على تطبيقها أنها مراحل شموخ وارتفاع يجب أن يقتدى بها ، ويسار على نهجها ، وأن رجالها مثل أعلى من الضرورة بمكان الاقتداء بهم ، والتركيز عليهم لتلقين ذلك للأجيال لترسيخ المعاني في النفوس ، على حين يرون أن الفترات التي لم يطبق فيها منهج العقيدة فترات ضعف وانتكاس وتراجع وتأخر ، وأن رجال ذلك الزمن لم يكونوا على مستوى المسؤولية لذلك لم يستطيعوا أن يطبقوا ما اعتقدوا، ولا أن يسيروا على الخط الذي تفترضه عليهم عقائدهم لذا فقد تعبوا وأتعبوا ، وسببوا ضعفاً في كيان الحكم تأثرت الأمة بسببه فوهنت وضعفت شوكتها ، وأطمع ذلك الأعداء فيها ، لذا تكون هذه الأيام في زوايا ميتة من التاريخ ، ويحاولون عدم التركيز عليها والإقلال من شأنها . فالتاريخ الإسلامي لم يصل في مرحلة من مراحل قوته إلى ما وصل إليه أيام رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين من بعده ، فأول سبب الضعف بعد ذلك إنما يعزى إلى بدء الانحراف عن العقيدة

التي يؤمنون بها ،وعن السياسة التي سار عليها رسول الله صلىّ الله عليه وسلم، وخلفاؤه من بعده والتي تنبع من عقيدتهم ، ومع استمرار الانحراف،وزيادة انفراج زاوية ذلك الانحراف زاد الضعف حتى إذا زاد الانفراج استسلمت الأمة فوقعت أمام أعدائها فسقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ بيد المغول،وسقطت غرناطة بيد الاسبان عام ٨٩٨ هـ ، وتجزأت بعد ذلك أشلاء الأمة،وتفرّقت كلمة المجتمع ، والتاريخ الإسلامي يُدرس في بلاد المسلمين جميعاً وبخاصة سيرة رسول الله صلىّ الله عليه وسلم وتاريخ الخلفاء الراشدين ، يدرس عند أصناف متعددين من البشر،وأجناس متغايرين تجمع بينهم العقيدة ، ولا يدرس على أنه تاريخ عربي نشأ على أرض عربية ، وحملت تلك الرسالة جماعة من العرب إذ لا يجمع بين تلك الأجناس والعرب جامع ، ولا تربط بينهم وشيجة سوى الإسلام ، ولولا ذلك لما درسوا ذلك الجزء من التاريخ .

وأما العادات والتقاليد والمفاهيم والحضارة والثقافة وما إلى ذلك من جوانب فكلها تنبع من العقيدة التي توجهها بالشكل الذي تفرضه ، وتقيّدها بالنهج الذي ترسمه ، فللبناء أسلوبه الخاص ، وللزخرفة شكلها المعين ، وللأفراح طابعها ، وللأحزان مراسيمها ، وللتعليم طريقته ومنهجه وحتى التحية والاحتفال والاستقبال والسير واللباس،وكل القضايا الاجتماعية تتدخل فيها العقيدة ، وتفرض عليها صفةً خاصة ، وسمةً معينة .

وأما ما عرف حديثاً باسم العامل الاقتصادي،أو المصلحة الاقتصادية التي تجمع بين المجتمعات،أو العناصر التي تكون أمة ، فهذا أضعف العوامل أثراً، وأقلها شأناً حتى في العوامل التي يتبناها المنحرفون وأصحاب المصالح فتبقى في مستوى المصلحة فتتغيرُ معها ، وتسير تبعاً لها ، وتتذبذب حسبها ، وما أكثر تغيرات المصلحة وتبدلاتها .

وليست هذه العوامل التي يقال عنها إنها تكون الأمة باستثناء العقيدة إلاّ عوامل طرحت على الشعوب الضعيفة أوجدتها الجهات الأجنبية التي فرضت

سيطرتها على هذه الشعوب ـ كما ذكرنا ـ ففرضت معها آراءها أو توجيهاتها فأخذها تلامذة الغرب وعملاؤه والمفتونون بحضارته المادية ، ولا يقصد من ذلك سوى زعزعة المسلمين عن عقيدتهم وإبعادهم عن مواقعهم التي يحتلونها .

وسنؤرخ للأمة المسلمة بغض النظر عن الأفكار الدخيلة والآراء المستوردة على الرغم من سيطرتها على بعض العقول وتسلطها على بقاع عديدة ، الأمر الذي جعل هوة سحيقة بين الحاكم والمحكوم حتى إن المتأمل من بعيد ليظن أن هذا رأي الأمة جمعاء وعقيدتها المستحدثة وذلك بسبب سيطرة الأفكار الغربية عن هذه الأمة ، والواقع أن هذا ليس إلا رأي فئة قليلة تمكنت من السيطرة بواسطة من سبقها فملأت الدنيا صراخاً بهذه الأفكار المستوردة .

الخلق الأول

اقتضت حكمة الله سبحانه أن يخلق على هذه الأرض مخلوقاً يكون مستخلفاً فيها ، يملك زمامها ، وتُطلق يده فيها ، ويكشف عما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات ، وقد سخّر الله لهذا المخلوق كل ما في هذه الأرض ، حتى يتمكن من القيام بعملية الاستخلاف المنوطة به ، ولا يهمنا هنا أن يكون هذا المخلوق هو أول من وجد على الأرض أم وجدت مخلوقات أخرى قبله ، أفسدت وسفكت الدماء ، أم أن الجنّ هم الذين فعلوا هذه الفعلة الأمر الذي جعل الملائكة تتساءل أمام الله ـ وقد عرفت ما حدث ـ فتقول « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون » [1] ، ولكن المهم هنا أن هذا المخلوق قد وجد ، وهو آدم عليه السلام ، وهو أول المخلوقات من البشر التي ننتمي إليها نحن ، ونتصل بأنسابنا إليه .

ولقد كرم الله هذا المخلوق بأن وهبه العقل الذي يفكر فيه ، وبه يختلف عن باقي المخلوقات الأمر الذي يجعله باستطاعته التمييز بين الخير والشر والنافع والضار ، ويتوقع النتائج التي تؤدي إليها الأعمال التي يقوم بها ، هذا التمييز هو الذي يجعلنا لا نطلق عليه اسم حيوان ناطق ، فالنطق أمر ثانوي فالببغاء تقلد البشر ، وبعض الحيوانات يحاكي الانسان ببعض التصرفات ، ولها أصوات هي نطقها ، وطريقة تخاطبها بعضها مع بعض ، وأسلوب تعايشها وتفاهمها ، فالإنسان إذن مخلوق عاقل ، وبالعقل وحده يتميز ، ويفترق عن بقية المخلوقات .

---

(١) البقرة : ٣٠ .

ولقد كرم الله هذا المخلوق من ناحيةٍ ثانية بأن خلقه على أجمل صورة وأكرم خِلقة ، وأوجد فيه عنصر الحياء ، فهو يسكن إلى أهله « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة [1] » ، ويتوارى عن الأعين فيما يقوم به من حاجات خاصة يختلف بذلك اختلافاً بيّناً عن باقي المخلوقات التي تمارس أعمالها الجنسية أمام أسرابها ، وتقضي حاجتها أمام فصائلها .

ولقد كرّم الله هذا المخلوق من ناحيةٍ ثالثة بأن جعله منذ بداية خلقه ساتراً عورته ، ناطقاً يجيد التحدث على عكس الصورة التي يعطيها الماديون للإنسان القديم التي تجعل أباهم وأولهم أكثر بدائية منهم ، إلا أن الإنسان الذي يتكلمون عنه إنما هو الانسان الذي تقوقع على نفسه في مجاهل الغابات، أو اعتكف في فيافي الصحراوات ، وله وضعه الخاص الذي نتعرض له باختصار ، ولا يستنتج من وضعه أنه صورة عن الإنسان القديم ، فهذا بيئته أثرت فيه ، وذلك خلقه أوجد فيه . إن أصل الإنسان واحد ، وهو آدم عليه السلام « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، الحقُّ من ربك فلا تكن من الممترين [2] » ، ولقد كان الانسان منذ ذلك اليوم كاملاً في شكله الجمالي بالصورة التي نراه عليها اليوم « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » [3] ، ونلاحظ أن أجسام الفراعنة المحنطة وقد مضى عليها ما يقرب من أربعة آلاف عام ، وهي بصورة إنسان اليوم لا تختلف عنه بشيء إلا بالطول الذي يتحدث عنه بعض الناس والذي كان للإنسان القديم ، إذ كان العمالقة في بعض جهات جزيرة العرب ، واختلفوا بأطوالهم لا بأشكالهم ، ولكن انتهوا قبل ألفي عام قبل الهجرة كما لا يختلف بتطوره الذي يتحدث عنه أصحاب نظرية التطور . وكان آدم عليه السلام منذ أول خلقه يجيد النطق ، ويحسن الكلام ، ويعرف

---

(١) الروم : ٢١ .

(٢) آل عمران: ٥٩-٦٠.

(٣) التين : ٤ .

التعبير « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »[1] ، وكان الإنسان الأول ، وذريته من بعده ، يستر جسمه ، ويخفي عورته . هكذا خلق الله آدم ، ولكن الشيطان غرَّر به وبزوجه حواء حتى ذاقا الشجرة التي نهاهما الله عنها فبدت لهما سوآتهما حيث عرّاهما الله من اللباس الذي كساهما إياه قبل الذنب والخطيئة ، فسلبهما ذلك بالخطيئة التي أخطأها ، والمعصية التي ارتكباها ، وعندها جعلا يشدّان عليهما من ورق الجنة ليواريا سوآتهما ، ويخصفان عليهما من هذا الورق كهيئة الثوب « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوآتهما وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ، ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين »[2] ، فالله سبحانه وتعالى قد أنزل على الإنسان اللباس بأن خلقه لهم أو دلهم على صناعته وذلك ليواري به السوأة « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم ، وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون »[3] ، وإذا فسّر بعضهم اللباس بالمطر إلا أنه قال : الذي ينبت القطن والكتان ، ويقيم البهائم التي منها الأصواف والأوبار والأشعار .

أما الجماعات البدائية التي تعيش في مجاهل القفار والغابات اليوم فليست من مخلفات الإنسان القديم الذي يتصوره الماديون ، ويتقلون صورته إلى الأطفال

---

(١) البقرة : ٣١ - ٣٣ .
(٢) الأعراف : ١٩ - ٢٣ .
(٣) الأعراف : ٢٦ .

ليتشوّوا في بُعدٍ عن عقيدتهم التي تصور لهم المخلوقات على الصورة نفسها التي يرونها اليوم . لقد كانت هذه الجماعات جزءاً من أقوام رسل الله الذين بعثوا لهدايتها ، فأبوا الدعوة ، ورفضوا الفكرة ، ووقفوا في وجه نبيهم ، وعتوا عن أمر ربهم فسلط الله عليهم من يحاربهم ويلاحقهم من مكانٍ إلى مكان ، فلو كانت هذه الجماعات منعزلة في مواطنها متقوقعة في مواضعها من الأصل ووجدت فيه ، لكان المعنى أن أصول البشر متعددة ، وهذا ما يخالف العقيدة الإسلامية بل الديانات السماوية كلها ، ولو وجدت من الأصل هناك لجاءها هاد ، وإلا لما كان عليها حساب ولما حق عليها العذاب « من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً »[1] ، إذ ما من قوم إلا وجاءهم بشير ونذير فآدم عليه السلام كان يعلم أبناءه وأحفاده التوحيد ويبلغهم دعوة الله ، واستمرت هدايته ، حتى كان (شيث) و (ادريس) ثم كانت دعوة نوح عليه السلام ، وهكذا فبداية الخلق لها دعاة وهداة وفيها قول وتعبير وأسلوب ، وللبشر لباس وسترة وأدوات تستعمل واجتماعات يدعى لها الناس وأحاديث تدور فيها ، فمن الجماعات من هدى الله ، وقبل دعوة الرسل ، وسار حسب إرشاداتهم وتعليماتهم فكانوا ان استخلفوا في الأرض وعمروها حتى حين ، وأخذوا من خيراتها ، واستفادوا من كنوزها ، حتى عتوا عن أمر ربهم ، ومن الجماعات من ركب طريق الضلالة أصلاً ، وسار على درب الغواية ، فكتبت عليه الشقوة ، وحبطت أعماله في الدنيا والآخرة ، وماله من ناصرين ، ووقعت في حمأة الجهل إذ ردّت دعوة الله ، فسلط الله عليها من يسومها سوء العذاب ويلاحقها يقاتلها ويفتك بها ، وهي تفر أمامه ، ولكنها أينما انتقلت تراه وراءها يجتاز خلفها اليم ، ويقطع الفيافي ، ويرتقي المرتفعات ، حتى دخلت في أماكن مجهولة ، أو مناطق نائية لا تصلح لسكن البشر ، فأقامت فيها ، وتفرقت بطونها بين مجاهلها ، وهناك ذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً ، إذ أعد الله لهم عذاباً شديداً .

---

(1) الأسراء : ١٥ .

ولما كانت مناطقها التي وصلت إليها حديثاً لا توجد فيها حاجاتها الأساسية من طعام ولباس ومأوى اضطرت أن تتخذ مما تقدمه لها تلك البيئة من مواد ، فمن أقام منها في المناطق الحارة لم يكن بحاجة إلى اللباس فظل عارياً ، وإنما ستر عورته بلحاء الشجر وأوراقه ، ومن عاش منها في البلاد الباردة اتخذ من جلود الحيوانات التي وجدها هناك واقتات بها لباساً وريشاً ، وكما استفادت من موارد بيئتها في اللباس ، استفادت منها كذلك في الطعام والسكن ، فهذا الانسان الذي عاش في المناطق الحارة قد عاش على جمع الثمار والتقاط النباتات والجذور الدرنية ، وسكن جذوع الأشجار ، وعلى أغصانها ، وبنى من أطرافها أكواخاً على فروعها ، وذاك الذي عاش في المناطق الباردة قد أقام حياته على لحوم الحيوانات ، واتخذ من عظامها أدوات له ، وبنى من الثلج له كوخاً ، يأوي إليه شتاءً ، وفي الصيف من الجلود والاهاب أقام خياماً يسكن فيها ويجمع صيده .

ولما كانت هذه الجماعات قد وجدت في أماكنها الجديدة التي حلت فيها أشجاراً غير التي اعتادت أن تراها في بيئتها القديمة ، وعرفت نباتات لم تكن تعرفها من قبل ، وتعرضت لحيوانات لم تكن تتعرض لها في السابق لذا فقد أطلق كل بطن من القبيلة على هذه الأشياء أسماء خاصة يعرفها هو لا سواه ، ويدعوها بها دون غيره ، ومن هنا لم تعد تعرف بعض البطون لغة بعضها الآخر بل عاش كل في متاهه ، وضلّ كل في مجاهله .

ولما كان كل فرد يعيش لنفسه ضمن أسرة صغيرة قد لا تتعدى الزوج وبعض الأولاد ، ولما كان كل يسير في بقاع مجهولة ليحصل على قوته وليؤمن غذاءه ، يسير وحده في أغلب الأحيان ، ويرى أنواعاً عديدة لم يرها من قبل سواء أكانت من الحيوانات أم من النباتات فكان يعطيها صفة خاصة ، أو إسماً معيناً ، لا يعرفه إلا هو بالذات ، فكان يصفه لأسرته بالإشارات أو يحدثهم عنه بالصفات ، فكان أن ضاعت لغة التفاهم فيما بينهم وسادت لغة الإشارات

والأصوات أو بعض الكلمات التي يعرفها بطن من قبيلة ، وأقلها ما تعرفه القبيلة كلها .

وظلت حالة هذه الجماعات إلى هذا العصر تعيش منعزلة في بقاعها عن العالم مبتعدة في مناطقها عن بقية الشعوب متقوقعة على نفسها فنشأت عندها مع الزمن عادات خاصة وتقاليد تنفرد بها عن غيرها ، ينظر إليها بعض الناس الآخرين على أنها نوع من البساطة الموغلة في التأخر حتى لتقترب من صفات بعض الحيوانات التي تعيش مجاورة لها ، أو كل منها يقترب من الآخر في مسكنه ، ويسابقه في مرتعه وتسلقه على الأشجار ، ومن كان منها أمهر افترس الآخر ، ومن كان أكثر قدرة على الحركة أو أسرع في عدوه اتخذ من الآخر وجبة طعام شهية له فملأ بها بطنه بحيث لا يستطيع بعدها المشي إلا ببطء لأنه لا يعرف متى يحصل على وجبة ثانية ، فقد تطول به الساعات حتى يظفر بصيد .

وإذا كانت تلك الجماعات التي يسمونها بدائية لأنها تعيش على درجة من البساطة في مأواها ولباسها ، في عاداتها وطعامها ، فإن هناك جماعات اخرى تعيش بين أهل الحضارة ولكنها موغلة في البدائية في تفكيرها أكثر من تلك بكثير ، ولو أنها تلبس الرياش وما يكتسيه أهل المدن من حُلل ، وتتغذى بأنواع الطعام وما اعتاد عليه أهل الحضارة من غذاء ، وتسكن القصور وأحسن الأبنية التي أشرف عليها كبار المهندسين ، فالبدائية في التفكير أشد مرارة من البدائية في اللباس أو السكن ، إذ أن هناك أناساً يلبسون كما نلبس ، ويأكلون كما نأكل ، ويسكنون حيث نسكن ، ولكنهم لم يخرجوا من دائرة رسمها حولهم طفل صغير بعصا يعبث بها ويلهو ، ويبقون فيها ما شاء لهم تفكيرهم أن يبقوا حتى يفتحها لهم غيرهم بخط أو بإشارة .. إن هؤلاء لأشد بدائية ولو كانوا في ثياب المدينة ، ومن هذه الجماعات من احتفظ بأفكار البدائية عنده ممزوجة بالأساطير والخرافات إذ لا يزالون يقدسون الحيوانات وبخاصة الأبقار ، فيتبركون بروثها ، ويدهنون بيوها ، إذا وقفت إحداها بالطريق تعطلت حركة

المرور ، ويزيد الأمر على ذلك فكل المخلوقات مقدسة في نظرهم إذ في أرواحها كنه التقديس وجوهره ، وإن الأعضاء التي تسبب الانجاب والتواجد هي مصدر إيجاده ، لذا أقيمت لها المعابد ، وأوجد لها أماكن خاصة بها تمثل فيها هذه الأعضاء مجسمة ، وليست هذه المجموعة كبقية الشعوب البدائية قليلة العدد صغيرة الحجم معزولة في رقعة من الأرض ، مجهولة بين أمم العالم بل هي مئات الملايين ، تحتل أراضي واسعة ، وتسكن بقاعاً ذات أهمية ، ولها مركزها بين دول الأرض. ومن هذه الجماعات من كان مسلماً فعندما حدثت خلافات في المجتمع الإسلامي أيد طرفاً ، وتطرف في حبه حتى عبدَ إمامه ، ثم اعتقد أنه حلّ بالقمر أو حلّ بالشمس ، وكانت عقيدة مجموعة أمور باطنية مستمدة من اليهودية والفارسية المجوسية والأساطير الاغريقية والفلسفات النظرية ، ثم انكفؤوا على أنفسهم وسط مجتمعهم يظهرون الإسلام ويبطنون غير ما يبدون ، ويحرّمون على أنفسهم ما أحل الله لهم من بعض الطيبات ، ويحلون لأنفسهم ما حرم الله عليهم من النساء إذ يعدون أن المرأة لا دين لها ، بل هي سلعة تباع وتشترى ، وتقدم وتهدى ، ويتاجر بها ، وهي الواسطة المبررة للوصول إلى الغاية ، وهؤلاء ليسوا بالقلة أيضاً إذ يزيدون على المليون ، ويقبعون في مناطق جبلية . ومن هذه الجماعات من عبد إلهاً شخصاً وأدخل في عقيدته النظريات الفلسفية ، وانكفأ على نفسه يبرر الأعمال التي يقوم بها ، وهذه الجماعة لا تقبل في عدادها جديداً إذ أن الباب قد أغلق ـ حسب رأيهم ـ . كما أن هناك جماعات كبيرة تعتقد أنها شعب الله المختار ، وليس عليها في الأميين من سبيل ، ولا وزر عليهم بما يفعلونه مع الآخرين ، وأن دياناتهم قد اقتصرت على اتباعها ولا مجال لغيرهم . ولكن هذه الجماعات من بدائي الفكر لا يسميها الماديون بدائية وذلك لأنهم يشتركون وإياهم في الجاهلية بالبعد عن العقيدة الصحيحة ، ويجتمعون وإياهم على الضلالة والفساد وارتكاب المنكرات الأمر الذي يدل على أن الماديين في جاهلية إذ يلتقون وبدائيو الفكر على صعيد واحد على حين يسمون بدائيي المسكن واللباس بدائيين لأنهم لا يجتمعون وإياهم في المفاسد ، لأن البدائيين منعزلين عنهم بعيدين عن اللقاء بهم .

هؤلاء وأولئك قد أركسهم الله لعقيدتهم الخرقاء وأوقعهم في حمأة الجهل . فضلّ هؤلاء بعقولهم ، وتاه أولئك في مواطنهم .

هؤلاء وأولئك قد أركسهم الله لعقيدتهم الخرقاء ، أضلهم الله باتباعهم أهل البغي ، فعبدوا الإنسان وألهوه ، أو قدسّوا الحيوان وأنزلوه منزلة الإله .

إذن يعيش اليوم في العالم أنموذجان من الجماعات البدائية ، الأول منهما بدائي في طرق حياته يعيش في بيئات واسعة منعزلة ، والثاني منهما بدائي في طرق تفكيره يحتك مع الماديين ويشاركهم في أعمالهم . ويدعمهم في السيطرة على بلاد كثيرة ، ويستفيدون منه في تسلّطهم ، ويكونون معاً أداة في تحكم الجاهلية .

خطوط عريضة

وجد آدم عليه السلام على أغلب الظن في جنوب غربي آسيا وفي جزيرة العرب على أكبر احتمال ، وإن كانت هناك آراء تقول : إنه وجد في الهند ، وأخرى تنادي بأنه كان في أول أمره في شمالي العراق .

وبدأ البشر يتكاثر في منطقة الخلق الأول ، ويزداد عددهم بسرعة ، ومن هذا المكان بدأ الانتقال إلى مختلف الجهات ، فعمرت البقاع القريبة من الجزيرة إذا عددناها البقعة الأولى للمخلوق الأول ، فتعددت بذلك الشعوب ، واختلفت اللغات تبعاً للبيئات التي وجدوا فيها ، وكانت من حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبعث في كل شعب رسولاً منهم يبلّغهم أوامر ربهم ، ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم ما يجب عليهم من أمور تفرضها العقيدة ، وكان كل رسول يتحدث بلسان قومه حتى يمكن تبليغهم الدعوة ، فآمنت جماعات وكفرت أخرى ، وبذا تشكلت الأمم وافترقت .

ولما كانت المناطق المأهولة هي الجزيرة العربية وما حولها لذا كانت الرسل في هذه البقاع ، إذا بعثت لأقوام هذه الأراضي ، ومن هنا نرى أن الرسل الذين نعرفهم لا يتعدون هذه الجهات ، وخاصة هذه المناطق التي كانت أكثر سكاناً من غيرها مثل العراق وفلسطين ومصر إضافة إلى جزيرة العرب ، أما المناطق الأخرى فلم تكن آنذاك معمورة ليبعث الله فيها رسلاً ، وإن وجد فيها قلة من البشر فإنما هم من الذين فرُّوا إلى تلك النواحي ، وهم من أقوام الرسل الذين ذكرنا ، ولذا فإن الدعوة تكون قد وصلت إليهم عن طريق رسلهم الذين بعثوا إليهم في مناطقهم الأولى التي كانوا فيها قبل أن يفرّوا ، وبهذا ينطبق عليهم الحساب ، ويحق عليهم العذاب ما دام الله قد بعث إليهم رسلاً ، وما كنا

معذبين حتى نبعث رسولاً»[1].

هذا إضافة إلى الأنبياء الذين كانت مهمتهم هداية البشر دون أن يكلّفوا بحمل رسالة ، وعدد هؤلاء كبير جداً ، ولا نعرف إلاّ عدداً قليلاً منهم ، وربما وجد عدد منهم في وقت واحد ، وفي منطقة واحدة ، هؤلاء الأنبياء وأولئك الرسل باستثناء آخرهم محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام كانت مهمتهم خاصة بأقوامهم لا تتعداها ، أو بجماعات منها لا تزيد عنها لذلك كانت رسالاتهم متعلقة بتلك الأقوام ، وعندما تتنزل رسالة عامة فلا بدّ من أن تنسخ كل ما قبلها ، وهذا ما كان من رسالة سيد البشر إذ نسخت كل ما قبلها .

لقد سارت الجاهلية كل المدة التي كانت قبل الإسلام إلاّ في أوقات قليلة وفي مناطق محدودة ، إذ أنه لم يؤمن بدعوة الأنبياء إلا أفراد قلة من جماعته وقومه ، ونتج عن هذا أمور كثيرة منها إن الله قد أهلك هذه الأقوام التي لم تؤمن بما جاء به الأنبياء والرسل ، فمنهم من أغرق ، ومنهم من خسف بهم الأرض ، ومنهم من دمرت الريح ديارهم ، ومنهم من أمطرتهم السماء بمطرٍ من سجيل ، وجاءت بعد هؤلاء الطاغين أقوام أخرى ، فبُعثت إليهم الرسل حتى إذا فعلوا ما فعل سابقوهم ، كان مصيرهم شأن أولئك الذين سبقوهم ، وهكذا .

ولما كان دور الرسل في الحكم ضعيفاً لذا لم تكن لتتنزل عليهم آيات فيما يتعلق بالحكم والتشريع والقانون تخص سوى قومهم، وهكذا فقد خلت الرسالات السابقة لرسالة خاتم الأنبياء والمرسلين من أي أثر عام للحكم فرسالة سيدنا موسى عليه السلام كان فيها بعض التشريعات، إذ أن سيدنا موسى قد كان بمنزلة الحاكم لبني إسرائيل، وحكمه نافذ فيهم، قائم عليهم، إلاّ أن تلك التشريعات كانت خاصة ببني إسرائيل لأنه لم تتعد سيطرته هذا القوم من البشر.

---

(١) الاسراء : ١٥ .

استبد الملوك والمتنفذون والطغاة بشعوبهم ، وسخّروهم لأعمالهم الخاصة ومصالحهم الذاتية ، فأقاموا لهم الأبنية بالاكراه ، وأنشؤوا لهم المشروعات ، وبقيت هذه المنشآت آثاراً عدّها المعاصرون حضارات على الرغم من أنها لم تكن لتحمل أي معنى إنساني ، بل كان ظلم الحكام واستبداد الطغاة هو الذي يحمل الناس على العمل في هذه الأبنية ، وذهبت آلاف البشر ضحية في كل مركز بناء خدمة لمستبد ، أو طاعة لطاغية .

ووضع الملوك والحكام قوانين خاصة من أجل تسيير شؤون شعوبهم ، وما كانت هذه القوانين لتخدم سوى مصالح المسؤولين ، ولذا فهي بتغيرٌ دائم ، تتبدل مع تبدل الحكام ، وهكذا شأن القوانين الوضعية باستمرار ليس لها صفة الدوام ولا تخدم سوى الذين وضعت في أيامهم كمسؤولين ، ولذا لا نستطيع أن نعدها أبداً جوانب حضارية مهما سما الفكر فيها ، حيث لا تخدم الرعايا ولا مصالحهم لأنها لم توضع أصلاً لهم وإنما وضعت للحكام .

واستخف أصحاب السلطة بأقوامهم فخضعت لهم ، وعبدتهم ، من دون الله ، وغالباً ما كان هؤلاء المتنفذون يستفيدون من أصحاب النفوذ وأصحاب المال الذين يمارسون الضغط السياسي والاقتصادي على المحكومين ، ويظهرون الخضوع أمامهم للحاكم ، فما يكون من المستضعفين إلاّ أن يقلدوهم ، ويصدقون ما يقوله الكبار عندما يرون أصحاب النفوذ المالي وذوي السلطة يقومون بأعمال العبادة ، وإذا ما جاءهم رسول من عند الله ، اشتركوا جميعاً في تكذيبه واستنكار ما جاء به . «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلاّ في ضلال»[1] .

أما الشعوب فقد كانت في حالة من التعب الشديد إذ أنهم إضافة إلى

---

١) غافر : ٢٣ ـ ٢٥ .

عبادتهم للحكام كانوا يعبدون قوى الطبيعة ، وفي كل مكان قوى خاصة فالشمس والقمر والنجوم والأشجار الكثيفة والمناطق الرهيبة والرعد والبرق والسحاب كل هذه قوى تعبد ، وتقام لها المعابد ، وكل منطقة تختلف آلهتها بعضها عن بعض . وكذلك وجدت الأصنام ، وأغلب الظن أن هذه الأصنام كانت أسماء رجال صالحين ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم إن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أيضاً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ولكنها لم تعبد حتى ضاعت معرفة الأشخاص عن هذه الأنصاب ، وهؤلاء الرجال الصالحون كانوا قد عاشوا قبل سيدنا نوح عليه السلام حيث عاش في تلك المدة رجال صالحون بالدرجة الأولى . وقال ابن جرير الطبري في تفسيره : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم اتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا ، قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا للعبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس ، فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يُسقون المطر ، فعبدوهم . وأصبح لكل صنم من هذه الأنصاب عبيد مخصصون له من الناس ، ولما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم ، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل ، ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً . وهذا ما ينتشر في كثير من الأزمان ، إذ أن عدداً من أتباع عالم من العلماء يتصورون أنه لا يمكنهم الخشوع في عبادتهم إلاّ إذا تصوروا سيدهم أمامهم، ولربما إذا مات تصوروا ذلك أو صوّروا ذلك العالم ووضعوه أمامهم ، وهذه بداية عبادة الأوثان والأصنام .

وكانت الشعوب على درجة من الضعف والإهانة ، فالقوي يستخدم الضعيف ، والحكام يسخرون رعاياهم جميعاً ، سواء أكان ذلك في الأعمال العامة أم في الأعمال الخاصة دون أن يستطيع إنسان أن يرفض أو يفرّ من العمل وإذا فكر بشيء من هذا فالموت ينتظره دون أية مسؤولية أو محاسبة من أي شخص مها ارتفع شأنه ، أو سما به الوضع ، لذا فالشعوب مستضعفة مهانة لا ترتفع

قيمتها في كثير من الأحيان عن مستوى الحيوانات ، وإذا ما أنكر شخص تصرف مسؤول استغرب الناس هذا الإنكار ، وعدوه مجنوناً أو في عقله شيء من ذلك إذ أن الموت يقف وراء هذا الانكار ، وكذلك فالحاكم يستغرب هذا الانكار لأنه ما تجرأ أن يفعل أحد من قبل مثل هذا الفعل .

وعاشت الشعوب على درجة من الفقر إذ لا يستطيع رجل أن يؤمن حاجاته الأساسية ، ويعدّ الحاكم أن ما يناله الفرد من رعاياه إنما هو رزق منه يتعطف به على أفراد مجتمعه ، ونتيجة الخوف من المسؤول يؤمن المجتمع بهذا إيماناً مطلقاً بالإكراه، وإن لم يكن بالقناعة ووراثة هذه المفاهيم .

وعاشت الشعوب على درجةٍ من الجهل ، ويحرص أصحاب السلطة على ترك رعاياهم بحالة من الجهل ، حتى يتقبلوا كل ما يملونه عليهم من آراء وتعاليم ، وما يفرضونه عليهم من عقائد ونظم وطقوس ، إذ عندما يفكر المرء فإنه يرفض الخرافات ويرفض الظلم ، ويرفض الاكراه على تعاليم معينة أو أنظمة وطقوس معينة وهذا ما يخشاه الحكام على مدى التاريخ .

لهذا كله أطلقنا على تلك الأزمنة جاهلية إذ أن عبادة الأشخاص من الأفراد هي السائدة ، والقوانين الوضعية هي التشريعات المعمول بها ، وهي التي تتبدل في عهد كل حاكم بناءً على مصلحته ونظرته إلى المجتمع ، ونظام السخرة هو المعترف عليه ، والظلم والفوضى والبؤس هي الأمور القائمة ، والانسانية لا يوجد لها أي معنى في ذلك الزمن وكل الأزمنة التي تحكم فيها الجاهلية .

ولقد تكاثر السكان في جزيرة العرب وبدؤوا يتنقلون منها إلى مختلف الجهات ، وكانت حركة السير بشكل عام تأخذ أحد الاتجاهات التالية :

١ ـ الشمال الشرقي : باتجاه بلاد الرافدين ، ومن هناك حدثت تنقلات أخرى باتجاه آسيا وأمريكا ، أو تجمعات على الطريق قبل الوصول إلى بلاد

الرافدين .

٢ ـ الشمال : باتجاه الشام ، وربما توقفت جماعات على خط السير إذا ما وجدت ما يناسبها من خصوبة الأرض أو المواقع الحصينة ، ومن بلاد الشام حدثت موجات ثانية إلى جهات أخرى من مناطق البحر الأبيض المتوسط .

٣ ـ الجنوب : باتجاه بلاد اليمن ، وكانت الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب على اتصال بافريقية مكان مضيق باب المندب ، ومن هناك تنتقل الجماعات إلى إفريقية أو تبحر عن طريق اليم إلى جهة الهند . وقد تكون منطقة من هذه المناطق الثلاث مكان دفع آخر ، وربما يعود منها إلى مقرها الأول كما حدث في جنوب العراق بعد طوفان نوح إذ توزّع أبناؤه .

في بلاد الرافدين

لما تكاثر السكان في جزيرة العرب خرجت جماعة منهم واتجهت نحو الشمالي الشرقي ، وانتهى بها المطاف في جنوب بلاد الرافدين ، فاستقرت هناك حيث التربة الخصبة والمياه الوفيرة ، فأقامت العمران ، وعملت بالزراعة ، ولم تلبث أن اتخذت لها أصناماً، وعبدتها من دون الله ، كآلهة ترجو خيرها، وتتقي شرها ، فبعث الله لها نوحاً عليه السلام ، ودعاها إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وألا تعبد تمثالاً ولا صنماً ولا طاغوتاً ، وأن تعترف بوحدانيته ، وأنه لا إله غيره ، ولا رب سواه ، فلم ينجح في دعوته ، ولم يؤمن معه إلا قليل من قومه ، على الرغم من طول الزمن إذ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وكان كلما انقرض جيل في حياة سيدنا نوح أوصى الجيل الذي يخلفه بألا يؤمن لنبيه ، حتى إذا طالت المدة وكثر الجدال بين الطرفين « قالوا : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال : إنما يأتيكم به الله إن شاء ، وما أنتم بمعجزين »[1] ، ولما يئس سيدنا نوح عليه السلام من إيمان قومه دعا عليهم « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلُّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »[2] ، فأوحى الله إليه بعد ذلك أن يصنع الفلك ، لينجّي به المؤمنين ، ويُغرق الباقين الذين لم يؤمنوا « وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ، ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه

---

(١) هود : ٣٢ ـ ٣٣ .

(٢) نوح : ٢٦-٢٧ .

عذاب مقيم» [١] ، حتى إذا انتهى العمل ، وركب بها من قد آمن مع نوح ، ساق الله السحاب فهطلت أمطار غزيرة ، وانبجست ينابيع كثيرة ، وطغى البحر في منطقة الخليج العربي ، وارتفعت مياه البحر المتوسط حتى اتصلت المياه بعضها مع بعض ، وامتلأت المنطقة بالمياه وفاضت ، وتحركت السفينة باتجاه الشمال ، حتى رست على جبل الجودي في شرقي تركيا اليوم ، أو ما يسمى الآن جبال (أرارات) حيث كانت تلك المرتفعات تعتو على الماء ، ثم انحسر البحر ، وهدأت الأمطار ، وغاضت المياه ، وجفت العيون ، وخرج ركاب السفينة منها ، واستقروا هناك ، وبذا انتقل مقر السكان من جنوبي بلاد الرافدين إلى المنطقة الجبلية في الشمال ، وبدأت زيادة السكان مرة ثانية في تلك الجهات ، وتكاثر أبناء سيدنا نوح عليه السلام الذين ركبوا معه في السفينة . فخرج سام وأبناؤه نحو الجنوب الغربي باتجاه جزيرة العرب ، وتفرقوا هناك ، وانطلق حام وأولاده نحو الجنوب ، فقامت فئة منهم في جنوبي العراق تارة أخرى ، وكانت الأرض قد جفت ، وبدت خصوبة أرضها ، وتابع الآخرون ، فتوزعوا : فسار بعضهم نحو الجنوب الشرقي نحو الهند ، واتجه الآخر نحو الجنوب الغربي حيث انتقلوا عبر مضيق باب المندب إلى إفريقية أو أن تلك القارة كانت على صلة بالجزيرة ، ومن هناك اتجهوا نحو الشمال وبقية المناطق فعمروها ، وأما ولد نوح الثالث وهو يافث فقد تحرك وذريته نحو الشرق ومنهم من سار نحو الغرب .

استوطنت الجماعة القادمة من الشمال مع إخوتها في أرض السواد الذي كان يعرف باسم سهل (شنعار) ، وسميت هذه الجماعة بالسومريين ، ولما كانت الأرض هناك ذات خصوبة ومياه وفيرة فقد اشتغلوا بالزراعة ونبغوا فيها ، وبنوا السدود ، وشقوا الأقنية ، وكتبوا بالأحرف المسمارية . وفي الوقت نفسه رجعت مجموعة من جزيرة العرب ، وأقامت بجانب السومريين ، وعرفت باسم الأكاديين نسبة إلى المدينة التي أقاموها ، وكانت حاضرتهم ، وقد تعلم هؤلاء الزراعة من جيرانهم السومريين . ولما كثر سكان المنطقة بدأ يرتحل عنها أقوام ،

---

(١) هود : ٣٦ ـ ٣٩ .

فسكن بعضهم في المرتفعات الشرقية من هذه البقعة وبنوا مدينة (سوزا) ، واتخذوها قاعدة لهم ، وأطلق عليهم اسم العيلاميين .

كان السومريون القوة الرئيسية في المنطقة قبل أن يتغلب عليهم الأكاديون ، وكانت من مدنهم الشهيرة بلدة (أور) التي تقع جنوب نهر الفرات ، وكانت مياه البحر تصل إلى القرب منها ، وهي غرب (هور الحمّار) اليوم .

عبدت هذه الأقوام التماثيل وتمادت في غيّها فبعث الله إليهم خليله إبراهيم عليه السلام ، وقد نشأ في مدينة (أور) السابقة الذكر ، وكان أهلها يعبدون الكواكب كما يعبدون التماثيل ، فناقشهم في هذه العبادات ، وجادلهم ، كما ناقش ملكهم ، وتغلب عليهم جميعاً ، ولكن النقاش والجدال لا يجديان مع الكفار ، إذ يرون الحقيقة مرّة ، والهزيمة في المناقشة أمر صعب ، لذا فهم يصرون على كفرهم وعنادهم ، ويحاولون أن يسخروا ممن هزمهم ، ويدّعون أن كلامه بسيط ، وفيه سخف وخرافة ، وهذا ما يستوجب أن يكون مجنوناً فلا يؤبه لكلامه ، وقد بدأ دعوته لقومه بمختلف الأساليب ، قال تعالى « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ، قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين : قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ، وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلّهم إليه يرجعون ، قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال :

أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم ، أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا : حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين »[1] . كما جادلهم في عبادة الكواكب قال تعالى « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ، إني أراك وقومك في ضلال مبين ، وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين »[2] ، ولقد ناقش سيدنا إبراهيم الملك (النمرود) الذي كان يتغطرس على قومه ويستعبدهم ، ويدّعي أمامهم الألوهية ، قال تعالى : « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين »[3] . وبعد هذه المناقشات والجدال والدعوة لم يؤمن من هذه الأقوام سوى لوط ابن أخي إبراهيم وزوجه سارة ابنة عمه ، عندها التفت مرة أخرى إلى أبيه يؤكد على دعوته له ، ويتلطف به ، قال تعالى : « واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ، يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ، قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ، لئن

---

(١) الأنبياء : ٥١ ـ ٧٠ .

(٢) الأنعام : ٧٤ ـ ٧٩ .

(٣) البقرة : ٢٥٨ .

لم تنته لأرجمنّك واهجرني ملياً ، قال سلام عليك سأستغفرلك ربي إنه كان بي حفياً ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً »[1] . ولما هجر قومه في الله ، هاجر من بين أظهرهم ومعه أخوه هاران وزوجه ملكا ولم يكونا مؤمنين ، وابن أخيه لوط وقد آمن وأسلم ، وزوجه سارة ابنة عمه ، كما سافر معه أبوه آزر حناناً عليه وتعطفاً ، وكانت جهة السفر لبلاد الشام ، وكان الطريق على مجرى نهر الفرات ، حتى وصلوا إلى بلدة (حرّان) التي تقع في تركيا اليوم شمال سورية على مجرى نهر (البليخ) ، وقد نسبت إلى أخيه (هاران) ، وهناك مات أبوه آزر (تارخ) ، فوجد هناك قوماً يعبدون الكواكب فناقشهم في عبادتهم لها ، فلم ينفعهم ذلك بل أصروا واستكبروا ، واستمروا في عتوهم . لذلك غادرهم ، ويبدو أنهم جماعة من أحفاد وذرية (يافث بن نوح) استقروا في تلك الناحية . واتجه نحو بيت المقدس ، وكان طريقه على بحيرة قطينة ودمشق ، وقد مرّ على برزة وصلّى هناك ، ولا يزال هناك مقام له مكان مصلاه ، ومنهم من يزعم أنه ولد هناك . وكانت بلاد الشام قد انتشرت فيها بعض الأقوام، منها القادمة من الجزيرة العربية ، ومنها الجماعات التي جاءت منفردة من العراق ، وكانت قليلة فلم تعرف حتى إذا كثرت وزاد عددها اشتهر أمرها ، ومنها من قدم من الشمال من أحفاد وذرية (يافث) ، وكان أكثر هذه الجماعات يعبد الكواكب ، وكانوا يتجهون في عبادتهم إلى القطب الشمالي على جهة نجم القطب ، وكان على أبواب دمشق القديمة هيكل لكل كوكب على باب من أبوابها . وكانت نهاية مطاف رحلته إلى شرق بيت المقدس ، ثم تابع إلى البلدة التي عرفت باسم (الخليل) فأقام هناك ، وجاءت سنوات عجاف فارتحل إلى مصر ، وأقام ابن أخيه لوط في جنوبي البحر الميت الذي يسمى بحيرة لوط ، ونترك الحديث مع سيدنا إبراهيم إلى موضوع بلاد الشام .

أما الأقوام التي كانت تقيم في جنوبي بلاد الرافدين والتي بعث إليها

---

(1) مريم : ٤١ - ٤٨ .

سيدنا إبراهيم فقد تمادت في غيّها ، وعتت عن أمر ربها ، وظلمت نفسها ، فسلط الله عليها جماعات ظالمة مثلها « وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون »[1] ، فأتت مجموعات من الجنوب الغربي فرّت من ظلم لحقها من ظالمين آخرين اشتركوا جميعاً في عتوهم عن طاعة الله وتكذيبهم أنبياءهم ، أو كثر عددهم فضاقت عليهم الأرض بمرعاها ، فخرجوا يبتغون أرضاً أخرى ، أو أجدبت عليهم بعد إخصاب فانطلقوا يفتشون عن دار يحلّون فيها ، يجدون فيها الخصب ، يحصلون على الكلأ ، فوصلوا إلى ديار قوم إبراهيم الخليل الأوائل (السومريون) ، فقاتلوهم ، وانتصروا عليهم وأقاموا مكانهم ، وكانت عاصمتهم مدينة (بابل) لذا عرفت الدولة التي أسسوها باسم الدولة (البابلية) نسبة إلى حاضرتهم . وقد اشتهرت هذه الدولة بالاهتمام بالزراعة ، ومن أشهر ملوكها حمورابي الذي وضع قوانينه التي عرفت باسم (شريعة حمورابي) ، وكانت الغاية منها فرض هيمنته على الدولة ، وازدهارها ، إلا أن هذه السلطة لا يمكن أن تدوم ، وهذه القوانين لا يعمل بها إلا في العهد الذي وضعت فيه ولخدمته ، فلم يلبث خلفاء حمورابي أن أصدروا تشريعات جديدة ، ولما كانوا قد استمروا في عبادة التماثيل التي ورثوها من الأماكن التي انطلقوا منها ، ومن الأرض التي أقاموا فيها ، والتي أخذوها من السابقين لهم أقوام سيدنا إبراهيم ، ولم ينتبهوا إلى ما أصابهم من قبل ، ولا إلى ما أصاب سابقيهم ، ولم يعودوا إلى أنفسهم ، ويقبلوا دعوة الله من أنبيائهم الذين بعثهم الله إليهم ، لذا فقد سلّط الله عليهم أقواماً آخرين ، جاء أكثرهم من الشمال ، بعضهم من الذين انتقلوا إلى تلك الجهات ، وبعضهم من أحفاد يافث بن نوح ، وقد عرفوا بأسماء مختلفة حسب الأماكن التي تكاثروا فيها ، أو الأصول التي انتموا إليها ، أو الأسر التي انتسبوا إليها ، ومنهم الحثيون والميتانيون والآشوريون . وآل الأمر إلى الآشوريين الذين كانوا في شمالي العراق ، وقد اتخذوا من مدينة (نينوى) عاصمة لهم ، وهي تقع بالقرب من

---

(١) الأنعام : ١٢٩ .

مدينة الموصل اليوم . وقد ضمت (نينوى) مكتبة عامرة ، واستطاع الآشوريون أن يبسطوا نفوذهم على جنوبي العراق وبلاد الشام وأن يهاجموا المصريين ، واشتهر من ملوكهم (سلمنصر الثالث) و (آشور بانيبال) . وقد تابع هؤلاء الآشوريون عبادتهم للتماثيل والكواكب ، وهو ما أخذوه من سابقيهم ، واستمروا عليه ، فلم يفكروا ، ولم يعملوا عقولهم ، ولم يتعظوا بما حلّ بسابقيهم ، ولم يقبلوا من أنبيائهم ، وفي النهاية بعث الله إليهم يونس بن متى رسولاً ، فدعاهم فلم يؤمنوا ، فضاق بهم ذرعاً فخرج مغاضباً فركب سفينة في نهر دجلة ، وكان يومذاك أكثر اتساعاً ، وأوفر غزارة ، وأكبر عمقاً ، فاضطربت السفينة وماجت بهم ، وقد ثقلت بما فيها ، ورأوا أنهم غارقون لا محالة إذا استمر الحمل الذي عليها ، لذا قرروا أن يقترعوا على من يلقوه في البحر تخفيفاً عنها وخوفاً على أنفسهم فإن ذلك خير من أن يموتوا جميعاً ، فاقترعوا فكانت القرعة على نبي الله يونس ، فأعادوا الاقتراع مرات ثلاث ، وكانت القرعة نصيب يونس عليه السلام في كل مرة ، فلما ألقي التقمه الحوت ، ويبدو أن بطن الحوت كان مثقوباً ، ثم لم يلبث أن خرج الحوت من النهر ، ولفظ يونس إذ تضايق منه ، ولم يستطع هضمه ، قال تعالى :«وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعناهم إلى حين »[1] ، وقال تعالى :«وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين »[2] . ورجع يونس عليه السلام إلى قومه فأعاد عليهم النصح والأرشاد والدعوة إلى الله ، وكانوا قد ندموا على رفضهم دعوته ،

---

(١) الصافات : ١٣٩ - ١٤٨ .

(٢) الأنبياء : ٨٧ .

وأبدوا أسفهم وبخاصة أنه وعدهم بحلول العذاب عليهم ونزوله بهم لتعنتهم وظلمهم ، ونتيجة هذا الندم فقد كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا إلى حين، قال تعالى: «فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين»[1]، إلا أن هذه الندامة لم يرافقها العمل الصالح والتقيد بما يأمرهم به رسولهم لذا كان تأجيل العذاب عنهم في الحياة الدنيا مدة ندامتهم ، أما في الآخرة فلهم العذاب الذي يستحقونه بما كسبت أيديهم ، ولما مرّ الزمن عليهم نسوا ما ندموا عليه ، فلما عادوا إلى الظلم والطغيان واقتراف الجرائم وعبادة الأصنام ، أرسل الله إليهم جماعات منهم كانوا يحكمونهم ، ويخضعون لهم ، ويدينون لهم بالولاء ، فنهضوا في وجههم ، وقاتلوهم ، وفي النهاية سقطت نينوى بيد المحاربين الجدد عام ١٢٣٤ قبل الهجرة ، وأصبح حكام المنطقة يعرفون باسم الكلدانيين ، واتخذوا من بابل أيضاً عاصمة لهم ، لذا عرفت دولتهم باسم (الدولة البابلية الثانية) ، وكان من أعظم ملوكها بختنصر الذي استولى على بلاد الشام ، وفتح القدس ، واستباحها لجنده ، ثم أخذ اليهود أسرى إلى عاصمته ، وقد عرف هذا الحادث باسم (الأسر البابلي) ، وقد بقي اليهود في بابل مدة سبعين عاماً ، كما هاجم مصر عام ١٢٢٧ قبل الهجرة ، وبنى بختنصر برج بابل المشهور ، واستمرت هذه الدولة حتى غزاها الفرس عام ١١٦١ قبل الهجرة ، وقضوا عليها .

بعد أن تكاثر السكان في بلاد الرافدين ، بدأ عدد منهم يتحرك نحو الشرق ، ويستقر في مناطق خاصة به ، إضافة إلى أن الحروب المتكررة ، والثورات الدائمة جعلت عدداً من السكان يغادرون ديارهم ، ويفتشون عن بقاع ثانية بعيدة عن مناطق الحروب والغزوات علّهم يجدون فيها الراحة والهدوء ، الأمر الذي جعل بلاد فارس تعمر بالبشر ، وعندما كثر عددهم ، تجمّعوا في دولة ، وغزوا الكلدانيين ، واحتلوا بلادهم عام ١١٦١ قبل الهجرة ،

(١) يونس : ٩٨ .

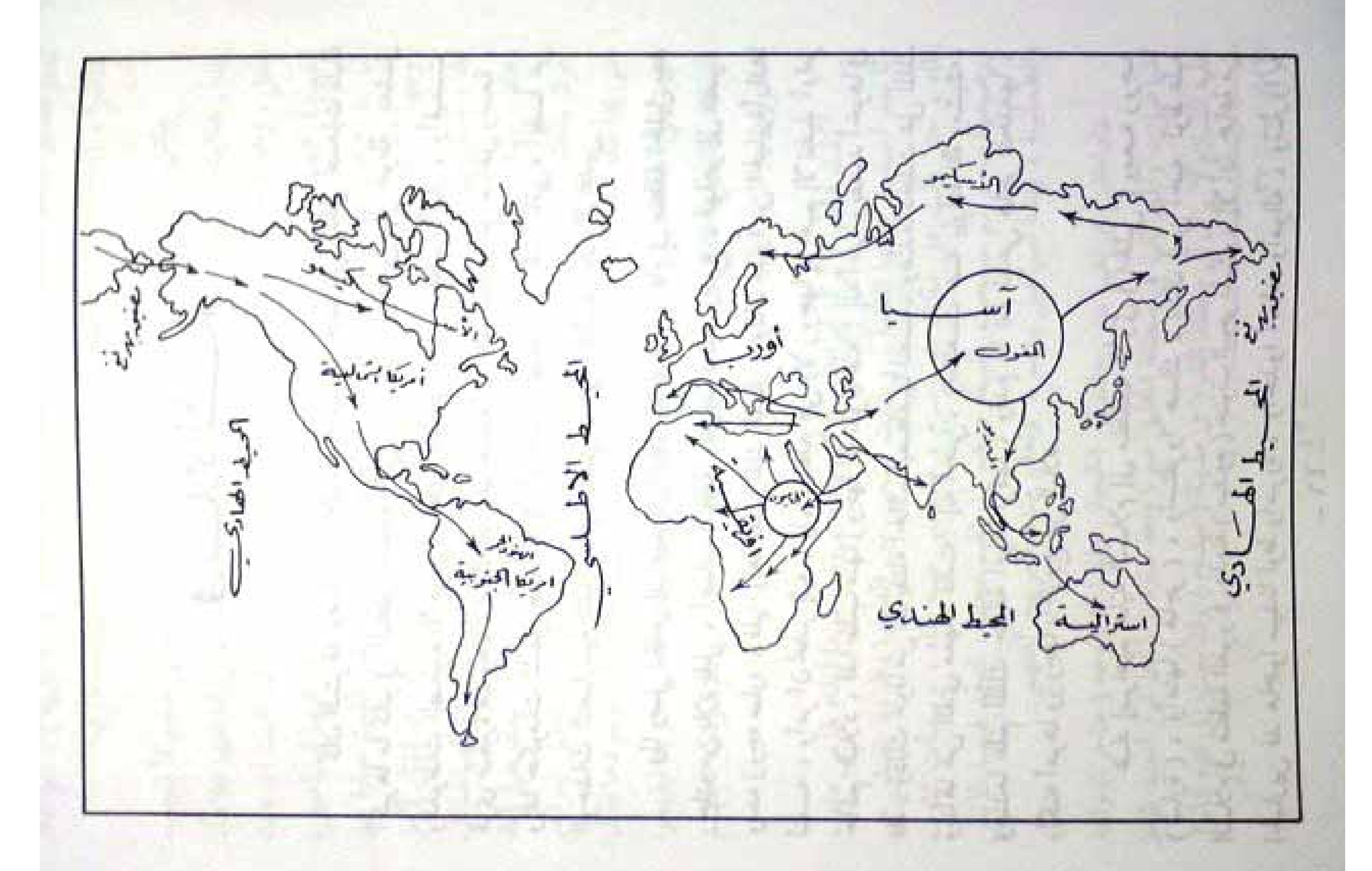
كما هاجموا مصر ، وسيطروا عليها ، وبقوا فيها حتى جاء الاسكندر الكبير المقدوني ، واحتلها .

ومن بلاد فارس انتقلت جماعات أيضاً نحو الشرق ، فراراً بأنفسهم ، واستقروا في أواسط آسيا وصحاريها ومع الزمن نشأ هناك العنصر المغولي الذي أثرت على جسمه تلك الصحارى الباردة فأخذ سمته الخاصة بها، وقد عاشوا هناك آمنين مطمئنين ، وأمدهم الله بأموال وبنين ، فتكاثروا بسرعة ، وتدفقت عليهم الخيرات ، فأعجبهم عددهم ، وأبطرتهم النعمة ، فكان غناهم ضرراً عليهم ، إذ ظنوا أن لهم القوة ولهم العزة والمنعة ، وأنه لا غالب لهم فكفروا بأنعم الله فأذاقهم لباس الخوف والجوع بما كانوا يصنعون ، إذ أرسل إليهم جماعات أولي بأس شديد وقوة ، فجاؤوهم من جهة الغرب ، فجاسوا خلال الديار ، وقاتلوا أهلها ، ففروا تاركين منازلهم ، لا يلوون على شيء من شدة الصدمة وهول الضربة ، منهم من اتجه إلى الجنوب ، ووصل إلى شبه جزيرة الملايو ، ومنهم من سار نحو الشمال ، وتفرّق في الصحارى الباردة في شمالي آسيا ، وقد توقفت عندها أقدام خصومه لمتاهات الصحراء واتساعها وشدة بردها ، ومن هذه القبائل التي لا تزال هناك قائمة إلى اليوم ، ومنهم من بقي في مكانه ، وهم الضعفاء الذين لا يستطيعون الفرار والانتقال .

ولكن لم تكن هذه النازلة لتعيد إلى تلك الشعوب العصاة صوابها ، وترجعها إلى عقلها ، بل تمادت في غيّها ، وزادت كفراً وعتواً ، كما بغى الذين حلّوا محلّهم ، فضرب الله بعضهم ببعض ، وسلّط جماعات منهم على الآخرين ، فأعيدت عليهم الكرة ، وحدثت الهجرات مرة أخرى تحت ضغوط أخرى ، فتفرق الملاويون في الجزر ، ووصلوا إلى استراليا وتاسمانيا ، وجزر المحيط الهادي ، وانتقل آخرون عن طريق مضيق (بهرنغ) وسواء أكان موجوداً أم كان البر متصلاً ، فدخلوا أميركا ، وتوزعوا فيها ، فمنهم من تابع سيره نحو الجنوب حتى أضناه التعب ، وأنهكه الانتقال ، فاستقر في أقصى جنوبي أمريكا أو أنه وصل إلى نهاية المطاف ، ومنهم من أقام في الغابات الاستوائية ، واتخذ

منها ملجأ ، ومن مجاهلها ملاذاً له ، ومنهم من عاش في البراري في المناطق المعتدلة في امريكا الشمالية ، وبقيت جماعات منهم في المناطق الباردة في أقصى شمال أمريكا .

إن هذه الشعوب جميعها من ملاوية وآسيوية ومن يسكن منها في امريكا لتعود إلى أصل واحد ، وتمت إلى عرق واحد ألا وهو العرق الأصفر الذي يعرف بالجنس المغولي ، والذي أخذ صفاته الأصلية من وسط آسيا في صحراء منغولية ، هذا الأصل الواحد والصفات المشتركة بين هذه الشعوب هي التي تحدد هذه الهجرات ، وترسم طريق سيرها وخط انتقالها .


آسيا
أوروبا
أمريكا الشمالية
أمريكا الجنوبية
استراليا
المحيط الهندي
المحيط الهادي
المحيط الاطلسي

في بلاد الشام

كان البشر قد وصل إلى بلاد الشام وتوزع فيها على شكل تجمعات قليلة أكبرها ما كان في المناطق الخصبة التي تشبه بلاد الرافدين مثل غوطة دمشق والغوطات الصغيرة الأخرى ومناطق الساحل وعلى ضفاف الأنهار ، وأقيمت قرى صغيرة هنا وهناك ، لذا لم تقم حكومات يمتد نفوذها على مناطق واسعة ، وإنما حكومات تشمل هذه القرى أو المدن الصغيرة ، وهذا ناشىء أيضاً عن الوحدات التضارسية المتباينة على عكس ما هي الحال في بلاد الرافدين .

ولما وصل الخليل إبراهيم إلى البلاد الشامية ، وأقام في منطقة الخليل بعد رحلته من بلاد بابل ، أصاب المنطقة سنوات قحط وجوع ، فهاجر إلى مصر ، ومعه زوجه ساره ، فلما رآها ملك تلك الديار ، وكان جباراً من الجبابرة أرادها لنفسه ، وأمر أن تحضر إليه ، ولم تستطع هي ولا زوجها إبراهيم إلا تنفيذ أوامر حاكم البلاد ، لذا طلب منها زوجها أن تقول عنه : إنه أخي ويقصد أخوها في الله ، وذلك خوفاً من أن يقتله الحاكم ليصطفيها لنفسه، وعندما دخلت على الملك وسألها عن الذي معها. قالت: إنه أخي، وامتنعت عنه بإرادة الله ومشيئته، وعندما علم الملك حقيقة أمرها تركها ، وقدّم لها أمة تدعى هاجر لتخدمها ، ولكنه أمرها وزوجها بالخروج من البلاد .

عاد إبراهيم عليه السلام إلى منطقته الأولى (الخليل) ومعه زوجه (سارة) ، وأمتها (هاجر) ، واستقروا هناك ، وكان ابن أخيه لوط عليه السلام في منطقة الغور في مدينة (سدوم) جنوب البحر الميت ، إلا أن جماعة من الجبارين قد هاجموا سيدنا لوط وأسروه ، وأخذوا أنعامه وأمواله ، وساروا به

نحو دمشق ، فطاردهم الخليل وعسكر شمال دمشق في (بـرزة) ، ثم عاد منتصراً ، ومعه ابن أخيه عليهما السلام ، وأقام كل في مستقره الأول .

عاش الخليل ابراهيم مع زوجه سارة عشرين عاماً ، وهي عقيم لا تنجب ولداً، فقالت لزوجها: أرى أن تتزوج (هاجر) عسى الله أن يرزقنا منها غلاماً، ففعل ، وحملت هاجر، ووضعت ولدها إسماعيل، إلا أن سارة لم تلبث أن دبت الغـيرة فيهـا، ولـم تعـد تستـطيع رؤية هاجـر ولا ابنها إسماعيل، كما أن أم اسماعيل قد تعاظمت على سيدتها الأولى ، لذا فقد طلبت سارة من زوجها أن يغيِّب عنها هاجر وابنها اسماعيل ، وما كان عليه إلا أن يمتثل لأمر الله ، فسار بهما نحو الجنوب حتى وصل إلى موضع مكة المكرمة ، فتركهما هناك، وعاد ، وكان اسماعيل رضيعاً . فسألت (هاجر) إبراهيم قبل أن يغادرهما الله أمرك بذلك ؟ قال: نعم. قالت: إذن لن يضيّعنا. وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه مكان البيت ثم دعا فقال: « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »[1] .

أكلت هاجر ما تركه إبراهيم لها من طعام ، وشربت ما أبقاه لها من ماء ، ولما نفد أصابها وابنها الظمأ ، وبدأت تسعى بين الصفـا والمروة تفتش عن الماء ، حتى دُلَّت على مكان بئر زمـزم ، فانبجس منـه الماء ، وبـدأت تشرب ورضيعها منه ، ثم سمحت لقبيلة جرهم أن تقيم معها ، لتجد فيهـا الأنس والطمأنينة ، ونشأ اسماعيل بينهم ، وتعلم منهم العربية لغتهم .

عاد الخليل إبراهيم من رحلته إلى الحجاز وقد ترك زوجه (هاجر) وابنه اسماعيل ، وأقام ثانية في منطقة الخليل مع زوجه سارة ، وكان ابن أخيه لوط عليه السلام لا يزال في منطقة الغور في مدينة (سدوم) وقد بُعث إلى قوم كانوا

---

(١) إبراهيم : ٣٧ .

يأتون الفواحش ، ويعدون أنذاك من أفجر الناس ، وأكفرهم ، وأسواهم طوية ، وأردأهم سريرة وسيرة ، ويقطعون السبيل ، ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكور من دون النساء ، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن ترك الفواحش والمحرمات وما يتعاطونه من منكرات ، فتمادوا في ضلالهم ، واستمروا في طغيانهم وفجورهم ، فأحل الله بهم العذاب الذي جاءهم من حيث لم يحتسبوا ، قال تعالى : « ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ، فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين »[1] . ولا تزال بلدة (سدوم) تحت مياه البحر الميت وعلى عمق ما يقرب من عشرة أمتار .

وبشر الخليل إبراهيم بولد من زوجه سارة ، وذلك بعد مولد سيدنا إسماعيل بحوالي ثلاث عشرة سنة ، وكانت البشرى عن طريق الملائكة وهم في طريقهم إلى قوم لوط ليهلكوهم ، قال تعالى : « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ، فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ، إن إبراهيم لحليم أواه منيب ، يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ، ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم

---

(1) الأعراف : ٨٠ - ٨٤ .

عصيب ، وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونِ في ضيفي أليس منكم رجل رشيد، قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد، قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ، قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ، فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد »[1] .

نشأ اسحاق عليه السلام في منطقة الخليل وتزوج وجاءه غلام سمي يعقوب عليه السلام ، وهو اسرائيل ، وبعث إسحاق ليتابع دعوة أبيه إبراهيم الخليل . واضطر ابنه يعقوب أن يرحل إلى أرض حرّان في شمال بلاد الشام ، وأن يقيم فيها مدة من الزمن ، وأن يتزوج من هناك من ابنة خاله ، ثم يعود مع أهله ، وكان قد ولد له عشرة من الأولاد الذكور من عدة نساء أثناء إقامته بحران . كما ولد له اثنان آخران في الأرض المقدسة ، أحدهما هو بنيامين شقيق سيدنا يوسف عليه السلام ، وقد توفيت أمه (راحيل) أثناء الوضع ، ودفنت في بيت لحم .

وبعث سيدنا يعقوب ليتابع دعوة أبيه اسحاق وجده إبراهيم الخليل ، في الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وكان يحب أبناءه الصغار يوسف وبنيامين أكثر من غيرهما عطفاً عليهما لوفاة أمهما (راحيل) ، وذكرى لها ، وحدثت له قصة ابنه يوسف عليه السلام المشهورة وملخصها أن إخوته قد شعروا بالغيرة والمضايقة من حب أبيهم لأخيهم يوسف أكثر من حبه لهم ، لذا أجمعوا أن يتخلصوا من يوسف ، وقرروا أن يلقوه في الجب ، وكان أبوهم لا يرغب في ذهاب يوسف مع إخوته خوفاً عليه وحباً له ، ولكن الأولاد أقنعوا

---

(١) هود : ٦٩ - ٨٣ .

والدهم بحبهم لأخيهم والسماح له بالذهاب معهم حتى ينال حظه في اللعب والتسلية معهم ، فوافق ، وذهبوا بأخيهم صباح يوم ، وعندما رجعوا مساءً عادوا بدونه وهم يبكون ، وقد ألقوا أخاهم في الجب ، وادعوا أمام أبيهم أن الذئب قد أكله .

وجاءت قافلة تتجه من بلاد الشام إلى بلاد مصر ، ومرّ ساقيها على الجب ليحمل الماء إليها ، فوجد يوسف فأخذه ، وعُدّ عبداً بيع في مصر لمصلحة رجال القافلة جميعاً ، واشتراه عزيز مصر ، ولم يكن له من ولد ، وطلب من امرأته أن تعتني به عسى أن ينتفعوا به أو يتخذوه ابناً لهما ، وشب يوسف ، كان جميلاً ، فراودته امرأة العزيز عن نفسها فأبى ، وادعت عندما رآهما زوجها ، أنه هو قد حاول الاعتداء عليها ، ومع قناعتهم جميعاً بصدقه وزعمها الباطل فقد أدخلوه السجن ، وبقي فيه بضع سنين ، ثم خرج عندما علم الجميع براءته وقدرته على إدارة الأعمال والتخطيط للمستقبل ، وأصبح مديراً للادارة المالية ومخططاً لأعمال التصدير ، فكان يوزع القمح على من يأتي من البلاد المجاورة إذ كانت فيها سنوات عجاف على حين كانت مصر تعيش برخاء وخير كبيرين .

وجاءت القوافل من بلاد الشام تبتاع الحبوب ، وتقايض على بعض المنتجات ، وكان من جملة من جاء مع القوافل إخوة يوسف ، وقد عرفهم لأنه لم يتغير كثير من أجسامهم إذ كانوا كباراً أو على الأقل بعضهم عندما فارقهم ، وبمعرفة بعضهم عرف الآخرين ، أما هو فقد كان صغيراً عندما انقطع عنهم ، وألقي في الجب وانتقل إلى مصر ، فتغير جسمه كثيراً لذا لم يعرفوه . وبعد أن أعطاهم حاجتهم من الحنطة ، وهي حمل بعير لكل فرد منهم ، طلب منهم أن يأتوا في المرة القادمة مع أخ لهم من أبيهم حتى يعطوا حمل بعير إضافي ، وإن لم يفعلوا فإنهم لن يحصلوا على أية كمية مهما صغرت أو أنه لن يكيل لهم أبداً . ورجع الركب إلى أبيهم ، وقصوا عليه ما حدث ، وطلبوا منه أن يسمح لهم بأن يأخذوا معهم أخاهم (بنيامين) ، وأقنعوه بذلك بعد محاولته الرفض والامتناع

إذ ذكّرهم بما فعلوه بشقيقه يوسف ، وبعد أن وافق على رحلة ابنه مع بقية إخوته زوّدهم ببعض النصائح ، وودّعهم ، وانطلقوا في القافلة .

ووصل إخوة يوسف إليه فأعطاهم مطلبهم ، وعندما انطلقوا وقطعوا مسافة قصيرة طُلب منهم الوقوف إذ أن صواع الملك مفقود ، ففتش عليه في أحمالهم فوجده في رحل بنيامين ، فأعيد صاحب الرحل إليه ، وكان يوسف قد عرّف بنيامين على نفسه ، ورغب في إبقائه إلى جانبه ، ولذا وضع صواع الملك في رحله حتى يحصل على ما تمّ . وشعر أبناء يعقوب أنهم قد نكلوا بما وعدوا به أباهم ، وحاول كبيرهم الا يعود حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ، ورجع بقية الإخوة إلى أبيهم ، وحدثوا أباهم يعقوب بما حدث معهم ، فتأثر تأثراً عظيماً ، وفقد بصره من شدة الحزن ، وطلب منهم أن يعودوا مرة أخرى يفتشون عن يوسف وأخيه .

ذهب أبناء يعقوب إلى مصر ، وتعرّفوا على يوسف ، وعفا عنهم وعما فعلوه ، وشعروا هم أن الله قد فضّله عليهم ، وطلب منهم أن يعودوا إلى بلادهم ويأتوا بأهلهم جميعاً ، ففعلوا وهكذا انتقل بنو اسرائيل إلى مصر ، وبقوا فيها مدة ، ومات يعقوب عليه السلام ، فنقل إلى الخليل ودفن هناك ، ثم توفي يوسف عليه السلام فحنّط وبقي في التابوت حتى نقله معه نبي الله موسى عليه السلام عندما خرج ببني إسرائيل من مصر .

وضعف أمر بني إسرائيل بعد يوسف عليه السلام ، وكانوا قد تكاثروا فيها ، وقد دخلوها ولا يزيد عددهم على المائة ، وبدأ الفراعنة يضطهدونهم ، وخاصة أن الاسرائيليين كانوا يشيعون أن أحد أبنائنا سيخلّص مصر من ملكها ، وسيقتله وذلك جزاءً لما فعله سلفه من الفراعنة الذي حاول أن يعتدي على أمنا سارة زوج أبينا إبراهيم ، لهذا أمر فرعون أن يقتل كل مولود لبني إسرائيل وأن تترك الأناث ، ولكن أمر الله لا يرد ، وولد موسى عليه السلام ، وألقته أمه في النيل ضمن صندوق ، فأخذه فرعون ، ورباه عنده ، ولم يكن

ينجب أولاداً ، فعندما كبر موسى عليه السلام دعا فرعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وجادله وناقشه ، فلم يؤمن فرعون . وبدأ الانقسام واضحاً بين بني اسرائيل والقبط ، واختلف رجلان من الفريقين ، فاستنجد الرجل الاسرائيلي بموسى على القبطي ، فوكزه موسى فقضى عليه ، وكادت الحادثة تتكرر ، وشاع بين الناس جميعاً أن موسى قوي ، ورأى القبط أن يقتلوه ، فخاف على نفسه ، وفرّ إلى بلاد مدين ، وبقي فيها مدة تقرب من عشر سنوات تزوج خلالها ثم عاد بأهله إلى مصر ، وأثناء الطريق كلمه الله في سيناء ، وبعثه رسولاً إلى فرعون وملئه ، كما بعث الله أخاه هارون ليكون دعماً لأخيه .

دخل موسى عليه السلام مصر ، وذهب وأخوه هارون إلى فرعون فدعواه إلى عبادة الله الواحد القهار ، فأبى واستكبر وجمع له السحرة فكان أن آمنوا ، وأبعد قومه عن موسى عليه السلام فكان أن آمن بعضهم ، وكتموا إيمانهم ، وما زاد ذلك فرعون إلا كفراً وعتواً في الأرض ، وعلم أن القتال سيدور في المستقبل بين الفريقين : بنو اسرائيل والقبط لذا أمر فرعون أن يعاد تقتيل أبناء بني اسرائيل واستبقاء نسائهم حتى يكونوا قلة في المستقبل ولا يستطيعون قتال القبط فيما إذا فكروا بذلك ، وإذا وقع فإن عدوهم سيكون قليلاً ، وستكون الهزيمة دائرة عليهم . وأصاب عذاب الخزي في الحياة الدنيا فرعون وقومه ، وعندها حلفوا لموسى وعاهدوه لئن كشف الله عنهم ما هم فيه ليؤمنن بموسى وليرسلن معه بني إسرائيل ، فرفع الله عنهم ، فعادوا إلى ما كانوا عليه من العتو والاستكبار ، وأعرضوا عما جاءهم من الحق ، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم آية أخرى فعادوا إلى ايمانهم ووعدهم وعهدهم حتى إذا كشفت عنهم أصرّوا على بغيهم وتكررت معهم الحادثة مرات ومرات ، ثم إن موسى قد دعا على فرعون وملئه ، واستأذنه بالخروج مع بني اسرائيل إلى عيدٍ لهم ، وما كان ذلك إلا حيلة ، فخرجوا واستعاروا حلياً من القبط ، وساروا متجهين إلى بلاد الشام ، وبلغ ذلك فرعون فلحقهم هو وجنوده ، فأدركهم عند شروق الشمس ، وتراءى الجمعان ، وأيقنوا أنه لا بدّ من القتال ، وخاف أصحاب موسى عليه

السلام لقلتهم واعتقدوا أنهم مدركون ، وتوقف بنو إسرائيل أمام البحر حتى اقترب منهم فرعون وجنوده ، وعندها أوحى الله لنبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، فانطلق بنو اسرائيل بين الفرقتين ، وتبعهم فرعون وجنوده ، فلما خرج بنو اسرائيل من مكان الماء كان فرعون وجنوده جميعاً في ذلك المكان ـ مكان الماء المفترق ـ فعاد الماء إلى ما كان عليه ، فغرق فرعون ومن معه ولم ينج منهم أحد ، وكان الجميع قد غرقوا باستثناء جثة فرعون فقد طفت على الماء ، فأخذت وحنطت لتكون عبرة لكل طاغية وكان ذلك البحر امتداداً لخليج السويس ، أما بنو إسرائيل فقد خرجوا ، وأصبحوا في الضفة الثانية للبحر أي في شبه جزيرة سيناء أو في بلاد الشام .

دخل بنو إسرائيل مصر مع أبيهم إسرائيل (يعقوب) وعددهم لا يزيد على المائة ، وخرجوا مع موسى عليه السلام ويزد عددهم على الألف وستمائة رجل عدا الذراري ، وبقوا هناك ما يقرب من خمسمائة عام .

ولما خرج بنو اسرائيل من البحر ، وغرق فرعون وجنوده ، شعروا أنهم أصبحوا في أمن ، وأنهم أصبحوا أحرارا فتكبّروا وعتوا ، وبدؤوا يطالبون رسولهم موسى عليه السلام بمطالب تدل على أنهم قد نسوا ما كانوا عليه ، ونسوا الإيمان الذي بفضله أُنقذوا من فرعون ، وبسببه تغلبوا على أعدائهم ، قال تعالى: « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون »[1] .

وكانت بلاد الشام قد أصبحت مسرحاً لانتقال أعداد من القبائل وصلت إليها ، بعضها جاءت عن طريق العراق ، وبعضها الآخر جاء مباشرة من جزيرة العرب ، وتوزعت هذه المجموعات في المناطق الخصبة ، فمن أقام في المناطق الشمالية عرف باسم العموريين ، ومن استقر في الساحل سمي باسم

---

(١) الأعراف : ١٣٨ ـ ١٣٩ .

الفينيقيين ، ومن عاش في الجهات الجنوبية أطلق عليه اسم الكنعانيين . وقد أقام هؤلاء السكان الجدد بجانب مجموعات سبقتهم إليها سواء أكانوا من الفلسطينيين الذين سكنوا سواحل جنوبي بلاد الشام والسهول الساحلية أم بقايا الجبابرة والعمالقة الذين كانوا متفرقين في البلادوقلة . ولقد أشركت هذه الجماعات فعبدت غير الله ، وجعلت لنفسها أصناماً خضعت لها ودانت ، فأرسل الله إليها الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين ، ولكنهم رفضوا الدعوة وتنكروا لها ، وركبوا طريق الضلالة . وقد أرسل الله أيوب عليه السلام للجماعات التي كانت تقيم في منطقة حوران فعاش بينهم سبعين عاماً يدعوهم ، فما آمن له من قومه إلا قليل ، ثم ابتلاه الله ثمانية عشر عاماً آخر ، وأناب أمره إلى الله ، وعافاه الله فعاش سبعين سنة أخرى ، يتنقل في شمال سورية على دين الحنيفية دين أبيه إبراهيم عليه السلام ، إلا أن الناس قد غيّروا بعده ما دعاهم إليه . كما بعث الله في تلك المنطقة (اليسع) عليه السلام ، وبعث لأهل انطاكية (يس) قال تعالى: « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية . إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ، قالوا ما أنتم إلا بشرمثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وما علينا إلا البلاغ المبين ، قالوا إنا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسنّكم منا عذاب أليم ، قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ، وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين »[1] ، ومن هذا يبدو أن أنبياء الله كانوا كثيرين لهذه الأقوام ، ولكن لا نعرف إلا بعض رسلهم وهم الذين ذكرهم القرآن الكريم ، وكذلك فإن عدد المؤمنين الذين صدقوا الرسل ، وآمنوا بما جاءوا به إنما كان عددهم قليلاً أيضاً . كما أرسل الله نبيّه (الياس) إلى أهل بعلبك الذين كانوا يعبدون صنماً كبيراً يدعى (بعل) ، وإضافة إلى المدينة فهو رسول إلى تلك الجماعات التي كانت تعيش في منطقة البقاع الشمالية ، فدعاهم

---

(١) يس : ١٣ ـ ٢٠ .

إلى ترك عبادة بعل ، والاتجاه نحو عبادة الله تعالى الذي خلقهم ، فكذبوه . قال تعالى : « وإنّ إلياس لمن المرسلين . إذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين . فكذبوه فإنهم لمحضرون . إلا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على آل ياسين، إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين »(١) .

كان على الكليم موسى أن يقاتل مع بني إسرائيل تلك الأقوام الموجودة في بلاد الشام ، فقد وجب عليه القتال ما دام قد أصبح سيد قومه الوحيد ، وصاحب الكلمة المسموعة ، وعليه أن ينفذ فيهم حكم الله ، وأن يقاتل من يقف في وجه الدعوة والمشركين عامة ، فقال لقومه ذلك ، فخافوا وجبنوا ، وضعفوا عن القتال ، قال تعالى : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبّارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين »(٢) وذهب الكليم موسى عليه السلام لميقات ربه فعبد قومه العجل من بعده قال تعالى : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلّوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما

---

(١) الصافات : ١٢٣ ـ ١٣٢ .

(٢) المائدة : ٢٠ ـ ٢٦ .

خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه قال ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لي ولأخي ، وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين . إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين . والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم »[1]، وكان الرسول موسى عليه السلام يذكّرهم بنعم الله عليهم ، ويطلبون منه المعجزات والمطالب ، ويغفر الله لهم ، ويمدهم بمزيد من النعم ومع ذلك فهم يتنكرون ويرفضون الإخلاص لله سبحانه وتعالى ، وقد تأثر موسى عليه السلام منهم أشد التأثر وكذلك أخوه هارون .

توفي الرسول هارون عليه السلام ، وبنو اسرائيل في التيه ، ثم لم يلبث أن توفي أخوه موسى عليه السلام ، وقومه لايزالون في تيههم ، وبعد ذلك خرج من بقي من بني اسرائيل من سيناء مع يوشع بن نون .

خرج يوشع بن نون من التيه وسار بهم نحو بيت المقدس ، وكان جيشه مقسّماً إلى اثني عشر قسماً حسب الأسباط أبناء النبي يعقوب عليه السلام . وكان طريقه من ناحية الأردن ، وعبر النهر ، وحاصر مدينة (أريحا) مدة ستة أشهر ، ثم استطاع فتحها ، وتوجّه إثر ذلك إلى بيت المقدس فدخلها ، وطلب من جنده أن يسجدوا لله الذي هيأ لهم هذا الفتح العظيم ، ولبث فيهم أكثر من ربع قرن ثم توفي ، وبدّل بنو اسرائيل ما قيل لهم وما أنزل الله عليهم قال تعالى « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجّداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا

---

(١) الأعراف : ١٤٨ - ١٥٣ .

يفسقون »[1] .

أثناء هذا الزمن جاءت جماعات أخرى من الجزيرة العربية تعرف باسم (الآراميين) وتنقلت في منطقة الهلال الخصيب ثم استقرت في سورية ، وأسست عدة ممالك نتيجة استقرار كل مجموعة في مكان ، وأشهر هذه الممالك : دمشق ، وحماة ، وسامال التي تقع شمالي البلاد ، وتعدّ اللغة السريانية التي تعرف في بعض قرى القلمون من بقايا اللغة الآرامية . ولم تكن دياناتهم لتختلف كثيراً عن ديانات السابقين لهم ، إذ كان لكل مدينة إله خاص ، وتقدم له القرابين والضحايا والهدايا وسط ساحة مكشوفة في وسطها تمثال وأمامه مذبح تقدم عليه الضحايا ، ومن أشهر آلهتهم التي عبدوها (عشتار) والإلهة (أدونيس) .

وتولى أمر بني إسرائيل بعد يوشع بن نون (حزقيل بن بوذي) إلا أن عهده لم يطل فيهم ، وتفرقت بعده بنو اسرائيل ، وضعف أمرهم إذ كانوا يقتلون أنبياء الله قال تعالى :« وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين »[2] . فسلط الله عليهم أعداءً من الداخل إذ استبدل بالأنبياء الذين كان يبعثهم لهم ملوكاً جبّارين طغاة يسفكون دماءهم ظلماً ، ويعذبونهم قهراً ، كما سلط عليهم أعداءً من الخارج إذ تغلب عليهم أهل (غزة) و (عسقلان) وسلبوا منهم التابوت ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وسبوا من أبنائهم عدداً كبيراً ، وانقطعت بينهم النبوة ، وانقسمت دولتهم ، واستمر ذلك ما يقرب من أربعمائة عام ، إذ بعث الله فيهم بعد ذلك (شمويل) نبياً ، فطالبوه بالقتال وأن يعين عليهم ملكاً ليقاتلوا تحت إمرته ، فلما عيّن عليهم ملكاً تولوا عن القتال قال جل وعلا: «ألم تر إلى الملأ من بني

---

(١) السجدة : ٥٨ ـ ٥٩ .

(٢) البقرة : ٩١ .

اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وابنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم ، والله عليم بالظالمين . وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤتي ملكه من يشاء ، والله واسع عليم ، وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ؛ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئةً كبيرةً بإذن الله ، والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين »[1].

ولكن بني إسرائيل الذين اعتادوا على المماطلة وكثرة السؤال والتهرب من المسؤولية وعدم الرضا بشيء يطلب منهم الانصياع له والخضوع إليه ، فلما طلب منهم نبيهم أن يخضعوا لطالوت وجدوا في أنفسهم حرجاً إذ رأوا فقر طالوت وهم يقوّمون الأمور بالمال ولا ينظرون إلى العلم والصلاح مع العلم أن المال أمر زائل ، كما أن النبوة بينهم كانت في أبناء السبط (لاوي) والملك في أبناء السبط (يهوذا) ، فلما كان (طالوت) من أبناء (بنيامين) استغربوا ولم

---

(١) البقرة : ٢٤٦ ـ ٢٥١ .

يقبلوا ، وإن لم يكن هذا الأمر هو المهم عندهم وإنما الرفض واللجاجة في كل شيء .

وحدث القتال في مرج الصفر جنوب دمشق بينها وبين حوران بين بني إسرائيل وبين خصومهم الذين يقودهم جالوت ، واستطاع داود أن يقتل جالوت واشتهر داود بين قومه ، واضطر طالوت أن يتنازل لداود عن الملك ، وآتاه الله النبوة إضافة إلى الملك ، وكان عليه السلام مجاهداً في سبيل الله يقاتل أعداء الله ، كثير العبادة والطاعة ، وعندما توفاه الله خلفه ابنه النبي سليمان عليه السلام بالملك كما بعثه له رسولاً فكان ملكاً رسولاً كما كان أبوه داود قبله .

تابع النبي سليمان عليه السلام الجهاد ، واستطاع أن يصل إلى دمشق ، كما استطاع أن يُخضع اليمن ، وأن يستذل حكامها من السبئيين ، وأن يتزوج ملكتهم بلقيس ، وأبقاها على اليمن تخضع لأمره ، وقد آمن أكثر قومها ، ومن قبل كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر ، وأنه قد جدد بناء المسجد الأقصى الذي شيّده يعقوب بن اسحاق عليهما السلام أو أبوه النبي اسحاق وكان بين بناء البيت الحرام الذي شيده إبراهيم في مكة وبين البيت المقدس الذي أقامه ابنه في القدس أربعون عاماً ، واستمر في ملكه عشرين عاماً ، وخلفه ابنه رحبعام ، وبعده عادت بنو اسرائيل إلى الفرقة والضعف .

وكان الكلدان قد قوي أمرهم في بلاد الرافدين وهاجموا بلاد الشام ، وقصد ملكهم (سنحاريب) بيت المقدس ، ولكنه عجز عن دخولها ، إلا أن بني اسرائيل لم يحاولوا العظة والبعد عن المعصية ، وكانوا لا يتناهون عما يجري في المجتمع من منكرات قال تعالى:« لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم

خالدون »[1] وجاء الكلدان مرة ثانية بقيادة ملكهم (بختنصر) فجاس خلال الديار ، وحاصرهم في بيت المقدس ، ولما طال عليهم الحصار نزلوا على حكمه ، فقتل منهم الثلث ، وسبى الثلث ، وترك الثلث وهم الشيوخ والعجائز ، وهدّم بيت المقدس ، وخرّب الحصون ، ودكّ المساجد ، وحرق التوراة ، وحمل الأموال ، وانصرف راجعاً يسوق أمامه السبايا والأسرى والصبيان وكان ممن أخذ معه (دانيال) أحد أنبياء بني إسرائيل ، و(عُزيراً) .

وجاء الفرس ـ كما ذكرنا ـ وقضوا على دولة الكلدانيين ، ودخلوا بلاد الشام ومصر ، وسيطروا على كثير من المناطق ، وبقيت لهم الهيمنة مدة من الزمن تقرب من مائتي عام .

وكان الناس ينتقلون من بلاد الشام عن طريق البحر وخاصة الفينيقيين إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط الأخرى ، وكانوا قد أسسوا لهم مراكز في كثير من تلك السواحل وخاصة الجنوبية منها ، كما كانوا ينتقلون عن طريق البر ، هذا بالإضافة إلى أبناء (يافث) وأحفاده الذين تحركوا لجهة الغرب وكان هذا الانتقال وهذه الحركة باتجاه الأناضول وإلى أوربا الجنوبية وخاصة الجهات المشرفة على البحر الأبيض المتوسط حيث الدفء والاعتدال ، وبذلك فقد عمرت تلك الجهات بالبشر على حين بقيت أوربا الشمالية خالية تقريباً ، وفيما بعد صارت تنتقل إليها قبائل من حوض الفولغا ومن شمال بلاد القفقاس، ونحن نعلم أن المسلمين عندما قاتلوا الأوروبيين الذين قادهم شارل مارتل في معركة بلاط الشهداء عام ١١٤ هـ، كان عدد من القبائل المقاتلة في صفوف شارل مارتل. لا يزال بدائياً إذ كانوا عراة لا يعرفون الثياب بعد . وهكذا عَمُرَ جنوبي أوربا ، وبقي شمالها حتى ذلك الزمن يكاد يكون خاليا ، وأكثر المناطق عمراناً أكثر السواحل امتداداً نحو الجنوب ، ومنها شبه جزيرة البلقان ، وشبه جزيرة إيطاليا، وقد كثر السكان فيها، فأسسوا حكومات وقوي أمرها، وخرج

---

(١) المائدة : ٧٨ ـ ٨٠ .

الأغريق سكان شبه جزيرة البلقان يتوسعون ، ويقاتلون من يقف في وجههم ، وقادهم الاسكندر الكبير المقدوني فضرب شرقاً حتى وصل إلى وادي السند أي دخل بلاد الشام بعد الأناضول وبلاد مصر وبلاد الرافدين وفارس ووادي السند ثم عاد ، وأدركته المنية ، فتقاسم قادته ما فتح ، فأخذ البطالمة مصر ، وكانت عاصمتهم الاسكندرية ، وحكم السلوقيون الشام وكانت قاعدتهم انطاكية ، وذلك حوالي عام ٩٥٥ قبل الهجرة .

وقوي شأن الدولة الرومانية التي كان مقرها روما عاصمة ايطاليا اليوم ، فورثت الأغريق في مناطق نفوذهم ، وسيطرت على سواحل البحر الأبيض المتوسط . وفي الوقت نفسه كان الفرس قد استقلوا بعد أفول نجم الاغريق ، وعادت إليهم قوتهم ، وبدأوا في صراع مستمر مع الرومان .

وجاءت مجموعة من الجزيرة العربية حوالي القرن الثاني عشر قبل الهجرة وأقامت في جنوبي بلاد الشام في المنطقة المشرفة على خليج العقبة ووادي العربة واستطاعت هذه المجموعة أن تنتصر على الدويلات الكنعانية في تلك المنطقة والدويلات الآرامية ، وأن تؤسس دولة عرفت باسم دولة (الأنباط) وقد اتخذت من مدينة (بطرا) قاعدة لها . وقد امتهنوا التجارة بعد الرعي مما قوى مركزهم الاقتصادي والسياسي ، ونتيجة موقع بلادهم فقد كانوا عامل توازن بين الدولتين الاغريقيتين البطالمة في مصر ، والسلوقيين في انطاكية . ولما استطاعت الدولة الرومانية دخول بلاد الشام ، ضمت إليها أيضاً هذه المنطقة عام ٧٢٨ قبل الهجرة بعد أن تسرب إلى الأنباط الضعف والوهن ، ولقد عبد الأنباط ما عبد غيرهم من الأوثان وقوى الطبيعة ، وكتبوا بالخط الآرامي ، ثم تطور الخط النبطي حتى كان بصورته العربية القديمة .

وتأسست أيضاً دولة في واحة (تدمر) وسط الصحراء دولة كانت عامل توازن بين الرومان والفرس ، ونتيجة التقاء الطرق التجارية في (تدمر) فقد أثرت البلاد ، وأقيمت الأبنية والقصور ، ولكن الرومان استطاعوا الانتصار

عليهم في النهاية وأسروا ملكتهم زنوبيا ، وزالت تلك الدولة التي لعبت دوراً في الحياة السياسية آنذاك .

وفي القرن السابع قبل الهجرة وصلت إلى جنوبي بلاد الشام قبائل بني غسان الذين انطلقوا من منطقة اليمن إثر سيل العرم بعد خراب سد مأرب ، وقد استقروا في منطقة (حوران) عند بئر غسان ، وتركوا حياة الرعي ، وأقاموا في القصور ، وكانوا عمالاً للبيزنطيين يحمون لهم حدودهم ضد غارات البدو وهجمات المناذرة عمال الفرس ، ولم تكن لهم عاصمة معينة ، إذ كانت لهم بصرى ، ثم انتقلوا إلى الجابية ، وكلاهما في منطقة حوران ، ثم توسع نفوذ الغساسنة نحو الشمال على أطراف البادية ، فأقاموا لهم قاعدة بالقرب من مركز سادتهم في دمشق ، فاتخذوا (جلق) مقراً لهم ، وهي على أطراف دمشق إلى الشمال الشرقي منها وعلى تسعة كيلومترات في الموقع المعروف اليوم باسم (حرستا) ، وإذا كانت العاصمتان الأولى والثانية قد خلفوا فيها بعض الآثار نتيجة وجود الصخور إلا أنهم لم يخلفوا في (جلق) أي أثر بسبب وجود التراب فقط ، وإن كانت بعض أسماء مراكزهم لا تزال قائمة إلى الآن مثل البلاط ، والحدائق ، والنهر الغربي الذي شقوه لتكون قصورهم بين نهرين ، ولتروى من النهر الذي شقوه ، ولما توسعت دمشق واقتربت من جلق اطلق اسم الجزء على الكل ، وغدت جلق كلمة مرادفة لدمشق وقد كان الشعراء يزورونهم في قصورهم ومنهم النابغة الذبياني وحسان بن ثابت وهو الذي يقول

لله در عصابة نادمتهم	بجلق يوماً في الزمان الأول

وانتشرت النصرانية بينهم ، وقد استمروا دعماً للرومان حتى الفتوحات الإسلامية حيث وقفوا أيضاً بجانب سادتهم الرومان ، وقاتلوا المسلمين بضراوة ، وإن كان قليل منهم قد ساعد المسلمين في فتوحاتهم .

أما بالنسبة إلى بني إسرائيل فقد عادوا من بابل بعد أن مات بختنصر

وضعف أمر الكلدان من بعده ، وقد بقوا في أسرهم مدة سبعين سنة ، ورجعوا إلى بيت المقدس ، وأعادوا عمارته من جديد ، إلا أن شأنهم بقي ضعيفاً ، إذ كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، ويكذّبونهم ، ولا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر الذي يفعلونه الأمر الذي أبقاهم في ذلة فدانوا للفرس ، وخضعوا للإغريق ، وحكمهم الرومان ، ومن أشهر أنبيائهم في أواخر أيامهم النبي زكريا عليه السلام فقد دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى الصلاة والصيام والصدقات فرفضوا ذلك ، وجاءهم بالدعوة نفسها ابنه النبي يحيى عليه السلام ، وحثهم على ترك المنكرات فعظم ذلك الأمر على ملوكهم أصحاب المصالح والهوى ، فأمروا بقتل النبي يحيى ، كما قتلوا أباه النبي زكريا .

واقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبعث نبيًّا لبني إسرائيل يذكرهم بأيام الله ومنته وفضله عليهم ، ويعرفهم بالجانب الروحي ، وقد طغت عليهم المادة طغياناً كبيراً ، وليذكروا قدرة الله العظيمة وأنها فوق كل قدرة . وقد هيأ الله جلّ وعلا لهذا النبي البيئة البيتية لتكون علامة الطهر والصلاح ، إذ ولدت الأم التي ستنجبه في بيت الفضيلة وتربت في مكان العبادة عند نبي من أنبياء الله وهو زكريا عليه السلام زوج خالتها ، وقد عرفت بالعفة والطهارة والعبادة ، وقد نبتت على ذلك قال تعالى:« إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً ، فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم ، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يا مريم أنى لك هذا ، قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب »[1] . هذه الفتاة هي التي اصطفاها الله لهذا الأمر الجليل ، وقد حملت من غير أب ، فكان ذلك مفاجأة لها غريبة مخيفة ومثيرة ،

---

(١) آل عمران : ٣٥ ـ ٣٧

وهي التي لم تعرف الرجال ، ولم تتصور هذا الأمر أبداً ، وكان مفاجأة لقومها إذ جاءتهم بأمر غريب ، وهي المعروفة بينهم بالطهر ، والمشهورة عندهم بالعفة ، ولما كان هذا الأمر مفاجئاً لهم اتهموها بعفتها ، والأمر المستغرب يكون مدعاة لمثل هذا الاتهام . لكن الله سبحانه وتعالى المطلع على كل شيء أراد أن يفاجئهم بأمر غريب آخر يردُّ اتهامهم وينفي كلامهم ، ويبين لهم قدرته ومعجزاته التي تظهر على لسان نبيه هذا الطفل المولد حديثاً المهيأ لحمل الرسالة ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده دون سواه ، وترك الحياة المادية والزهد فيها . وقد سألها قومها عما فعلت وقد جاءت تحمل مولودها الحديث ، قال تعالى :« فأتت به قومها تحمله ، قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغياً »[1] . فماذا تتكلم والأمر غريب مفاجيء ؟ ولم يكن لها من بدّ من أن تشير إليه ، فإذا به يتكلم ، وإذا بالأمر أكثر مفاجأة مولود جديد ينطق بحكمة بالغة ولسان مبين ، الأمر الذي أسكتهم ، قال تعالى « فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً . قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركاً أين ما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً . والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً »[2] وعلى الرغم من أن بني اسرائيل قد بهتوا من كلام الفتى إلا أنهم قد أكثروا الكلام فيه وفي أمه ، وكانوا يسمونه (ابن البغية) ، قال تعالى « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً »[3] . ولكن عيسى عليه السلام بعد أن تكلم وهو مولود جديد سكت حتى تكلم كما يتكلم الأطفال في سن عادية أو تقرب من السنة . وأخذ إلى مصر هرباً من هيرودس ملك اليهود ثم رجع وهو في سن الثلاث عشرة تقريباً ، وأقاموا في الناصرة ، وبعث في الثلاثين من عمره ، وعمِّد في الأردن ، وجادل بني اسرائيل كثيراً ، ووعظ كل من التقى به ، وكان يشفي المريض ، ويبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن

---

(١) مريم : ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) مريم : ٢٩ ـ ٣٣ .

(٣) النساء : ١٥٦ .

الله ، وقد لازمه في دعوته الحواريون وعددهم اثنا عشر حوارياً ، واختار سبعين رجلاً معهم وأرسلهم إلى قرى بني إسرائيل وإلى بلاد الجليل في شمالي فلسطين للدعوة والتبشير بعبادة الله ، والزهد في الحياة الدنيا ، ولما رأى ملك بني اسرائيل أن الأمر كاد يفلت من يده عمل للتخلص منه ، وتآمر معه بنو اسرائيل وشكوه ظلماً إلى حاكم فلسطين من قبل الرومان واسمه (بيلاطس) ، وكذبوا عليه ، ثم أمسكوه ، وسلموه إلى الحاكم الروماني ، فقضى عليه بالموت صلباً . ولكنهم لم يستطيعوا تنفيذ ذلك به ، إذ شُبّه لهم غيره فصلبوه ، ورفع الرسول عيسى عليه السلام .

نزلت الكوارث وحلت البلايا بأتباع الرسول عيسى عليه السلام بعد ارتفاعه عن هذه الأرض الأمر الذي جعلهم يستخفون بدياناتهم ، ويفرون بها أحياناً ، ويستشهدون أحياناً أخرى ، وهم في كلتا الحالين لا شوكة لهم ، ولا قوة تحميهم ، وتحمي دياناتهم ، وقد كان قياصرة الروم لا يتورعون عن القتل الذريع في أتباع السيد المسيح عليه السلام ، وخاصة القيصرين اللذين جاءا بعد القيصر (طيباروس) الذي عاصر السيد المسيح ، وفي عهد الثاني منهما دوّن إنجيل متى بالعبرية أو بالسريانية في الحبشة ومات متى هناك عام ٥٥٢ قبل الهجرة ، ثم ترجم الإنجيل إلى اليونانية . ولم يكن الاضطهاد من قبل الرومان فقط وإنما من قبل اليهود أيضاً الذين كان أذاهم أشد وأنكى لأنهم يعيشون معهم وعلى معرفة بهم وبداخلهم .

وزاد الاضطهاد والأذى في عهد نيرون عام ٥٥٨ قبل الهجرة الذي اتهمهم بإحراق مدينة روما ، فتفنن في العذاب وطرقه ، وفي عهده كتب مرقس إنجيله عام ٥٦١ قبل الهجرة ، وكان في مصر ، كما دوّن لوقا إنجيله ، وفي آخر عهد نيرون سجّل يوحنا إنجيله . وفرّ في هذه المدة قسم من اليهود من بلاد الشام ، وسكنوا وادي القرى ويثرب وخيبر وفدك في الحجاز .

ولقي النصارى الاضطهاد في عهد (تراجان) وكثيراً من الأذى ، وكذا في

عهد القياصرة كلهم . وإن كان بعضهم أقل أذى وأخف وطأة ، ولكن أشدهم كان (دقلديانوس) الذي انتقل إلى مصر وقتّل الكثير منهم ، وهدم الكنائس ، وأحرق الكتب ، وسجن الأساقفة وذلك عام ٣٧٤ قبل الهجرة ، واضطر الكثير منهم في كل الدولة الرومانية أن يظهر الوثنية وأن يخفي النصرانية الأمر الذي جعل الفكر يضم خليطاً من الديانتين وزاد في ذلك الفلاسفة الذين استخدموا النظريات العلمية اليونانية لتهذيب الآراء الدينية ، فالتحمت الفلسفة بالدين التحاماً عضوياً ، ونشأ عن هذا اختلاف في الآراء بين أتباع الكنائس ، ووجد قسطنطين أن يجمع بين هؤلاء المختلفين فعقد مجمع (نيقية) عام ٢٩٧ قبل الهجرة ولم يكن قد اعتنق النصرانية بعد وإنما كان لا يزال وثنياً ، ونشأ في المجمع خلاف كبير فرض عليهم قسطنطين الرأي الأقرب إلى فكره على الرغم من قلة أتباعه ، وانقسمت الكنيسة . ووجدت المذاهب المختلفة المتباينة .

وكانت اليهودية قد انتشرت في مناطق ضيقة في جنوب بلاد العرب ، وسكن بعضهم قرى في الحجاز ويثرب ، كما انتشرت في بلاد الخزر . أما النصرانية فقد انتشرت في مصر والحبشة ومنها انتقلت إلى بعض جهات الجزيرة مثل نجران ، وفي بقية بلاد الشام إضافة إلى فلسطين ، وبلاد الرافدين ، ثم أصبحت ديانة الدولة الرومانية . أما بقية الجهات فقد كانت تسود فيها الوثنية التي تختلف بين منطقة وأخرى تبعاً لرجالاتها الذين ظهروا فيها والذين قد يكونون من الصالحين فعبدهم من جاء بعدهم ، وأقاموا لهم التماثيل ، ففي الهند كان (براهما) ثم ظهر (بوذا) ، وفي الصين كان (كونفوشيوس) ، وظهر في فارس (زرادشت) وكذا في أمكنة كثيرة كان ما كان في هذه البلاد وشبيهاً لها . وبقيت بلاد الشام على هذه الحال حتى جاء المسلمون إليها فاتحين .

في مصر وافريقية

ذكرنا أنه بعد طوفان نوح قد اتجه ابنه سام وبعض أبنائه وحام بن نوح وعدد من أولاده نحو الجنوب ، وقد سكن بعض أولاد سام وأحفاده في موطنهم الأول الذي كان قبل الطوفان في جنوبي بلاد الرافدين ، كما توزعوا في الجزيرة العربية فمنهم من تابع السير نحو الجنوب الغربي واستقر بعضهم في الأحقاف وتابع آخرون طريقهم إلى أن وصلوا إلى اليمن حتى استوطنوا هناك ، كما أن جماعات منهم قد ساروا من جنوب العراق مباشرة نحو الغرب حتى وصلوا إلى شمالي الحجاز فأقاموا هناك . أما حام مع أبنائه فقد غزّوا السير مبتعدين عن البلاد التي حدث فيها الطوفان ، فمنهم من انتقل إلى الهند وسواء أكان عن طريق البر أم عن طريق البحر ، ومنهم من انتقل إلى إفريقية وسواء أكان موجوداً مضيق باب المندب أم لا ـ كما ذكرنا ـ وعندما وصلت هذه الجماعات إلى إفريقية تفرقت هناك بعد أن جاءتهم أنبياؤهم ورفضوا ما دعوهم إليه ، وأصرّوا على عنادهم واستكبارهم ، فانطلق (البوشمن) نحو الجنوب الغربي ، وقد لحقهم (الهوتنتوت) يقاتلونهم ، وقد سلطهم الله عليهم ، وأذاق الأولين من الآخرين ظلماً وعذاباً ، واندفع وراء المجموعة الثانية أيضاً (البانتو) يعملون فيهم قتلاً وتشريداً ، ولم يختلف هؤلاء عن المجموعتين السابقتين في العقيدة . ولكن ليذيق بعضهم بأس بعض ذلك بما عصوا وكانوا يستكبرون في الأرض ، ولم تختلف فئة عن أخرى إلا أن الثانية تكون أقوى أجساماً وأكثر ظلماً ويمكن أن نلحظ هذا التفاوت في البنية حتى هذا العصر ، فالبوشمن دون الهتنتوت وهؤلاء أقل من البانتو بسطة في الأجسام ، قال تعالى « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً ، وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً ، أعدّ الله لهم

عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً »[1] .

وللسبب نفسه سارت مجموعات أخرى حتى دخلت الغابة الاستوائية فاختفت فيها وضاعت بين مجاهلها عن أولئك الذين يلاحقونها أولئكم هم الأقوام الذين لا يزالون يعيشون في تلك البيئة حتى الآن منذ أن رفضوا دعوة أنبيائهم فسلّط الله عليهم الزنوج من البانتو فعملوا فيهم قتلاً وتعذيباً حتى ألجؤوهم إلى تلك المجاهل ، فضلّوا فيها ، كما تاه سابقوهم في صحراء (كلاهاري) .

وانطلقت جماعة من أولئك الذين نزلوا في شرقي إفريقية نحو الشمال الغربي وكان منهم البربر ، كما سارت جماعة أخرى نحو الشمال باتجاه مجرى نهر النيل وفي واديه فأقامت في أسفله ، وكان منها المصريون القدماء .

ونتيجة للبيئات المختلفة التي عاشت فيها كل جماعة فقد أثرت عليها مع الزمن وأعطتها صفة معينة في الجسم والشكل وسمة خاصة في الحياة الاجتماعية حتى غدت كل واحدة تتميز عن الأخرى بصفات تفرّقها بعضها عن بعض وكأنها ذات أصول متباينة ، وأصبحت كل فئة منها رأس قبائل عديدة افترقت عنها وانقسمت منها .

ونتيجة ما كانت تعتقد هذه الجماعات قبل انطلاقها من مكانها الأول يوم جاءتها أنبياؤها بالحق المبين ومقاومةً منها لذلك ، وكراهية للنور الواضح ، وتمسكاً بما كانت تؤمن ، فقد استمرت في عبادتها للأوثان ، وتابعت دياناتها القديمة الوثنية بالاضافة إلى ما دخلها مما وجدته في البيئة وبما أخذته من أقوام مجاورين لها في السكن ومشابهين لها في العقيدة فقد جعل لكل جماعة ديانة خاصة بها ، وإن كانت تشترك جميعاً في أنها وثنية ظالمة لنفسها .

---

(1) الطلاق : ٨ - ١٠ .

تكاثر السكان في مصر أكثر من غيرها نتيجة خصوبة التربة والمياه الوفيرة التي يحملها نهر النيل ، وكانوا على شكل قبائل تعيش على ضفاف النهر ، على حين كانت الدلتا آنذاك على شكل أراض مستنقعية ينمو فيها القصب ، وكان لكل قبيلة أرضها الخاصة بها ، ورؤساؤها ، ومعبوداتها ، وطقوسها الدينية . وبسبب ما تقتضيه المشروعات العامة من بناءٍ للسدود وشقٍ للأقنية ، فقد وجدت حكومات محلية ضمت كل واحدة منها عدة قبائل أو مجموعة من المدن ، وكان لكل حكومة معبودها المعين وجيشها الخاص بها . ودب التنافس بين هذه الحكومات ، وكل منها يطمع في ضم أجزاء إليه ، أو أخذ محصولات وفيرة عند جيرانهم ، أو حماية معبودهم من أن يذل وأن يخزى ، وكانت الحرب بين هذه الدول الصغيرة ، وتجمعت نتيجة ذلك في دولتين إحداهما في الشمال وعاصمتها (منف) والثانية في الجنوب وقاعدتها (طيبة) ثم توحدتا على يد (مينا) .

كان حاكم مصر يعرف باسم فرعون ، وهذا الاسم يطلق على جميع الحكام ، وينتقل الحكم بالوراثة ، فرعون ذو صلاحية مطلقة ، ويدعي الألوهية ، ويستعبد الشعب ، ويكلفه بالأعمال سخرةً ، ويفعل ما يريد ، ويقتل من يشاء دون حساب ، وقد أجبر الفراعنة الأوائل الشعب على بناء الأهرامات لهم ، فخلّدوا بذلك ذكرهم ، وسجلوا طغيانهم ، ولا تزال هذه الأهرامات شاهدة على الظلم آنذاك ، والبناء يلعن من أشاده على ظهور أبناء الشعب وجماجم الرجال ويقول : بناء قام على ظلم لا يسمى حضارة لأنه لم يشعر أحد آنذاك بسعادة ، وإذا لم يشعر الناس بالسعادة والطمأنينة فليس هناك من حضارة مهما بقي من آثار ومهما بقي من عمران ، وفي هذه الأيام وصل الخليل ابراهيم إلى مصر مع زوجه سارة، وأراد فرعون اصطفاء سارة لنفسه، ولكن الله أنقذها منه، وطلب فرعون منها مغادرة مصر، وأعطاهم (هاجر) خادمة لسارة.

إن الظلم لا يمكن أن يدوم، والقسوة لا يمكن أن تستمر ، وصبر الناس

لا بدّ من أن ينفد ، وتحمّل الأذى له حدود ، فقد ثار الناس على حكامهم ، وعمت الفوضى ، وعادت التجزئة إلى البلاد ، الأمر الذي ساعد الرعاة من البلاد الشامية أن يأتوا إلى المنطقة، وأن يصبحوا فيها ملوكاً، وقد عرفوا باسم (الهكسوس) وفي أيامهم جاء يوسف عليه السلام إلى مصر ثم استقدم أباه وإخوته وأهله إليه فعاشوا فيها حتى خرجوا منها فيما بعد مع موسى عليه السلام ، وكان هؤلاء الرعاة يعرفون شيئاً من دين إبراهيم واسحاق ويعقوب ، ويميزهم القرآن عن بقية حكام مصر باسم الملوك على حين يطلق على غيرهم اسم الفراعنة .

لم يكن ملوك الرعاة بأفضل من الذين حكموا قبلهم إذ ورثوا عنهم الاستبداد ، وأخذوا عنهم الظلم ، وتعلموا منهم استعباد الناس ، والاستكبار في الأرض. ويبعث الله إليهم يوسف بن يعقوب عليه السلام نبياً ورسولاً، ولكن الهوى والمصلحة أعمتهم عن تقبل الحق . فلما اتهمت امرأة العزيز يوسف عليه السلام ، وثبتت براءته ، وظهرت خيانتها وكذبها ومع ذلك فقد أدخلوه إلى السجن ظلماً وزوراً ، قال تعالى:« ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين »[1]. ودعاهم يوسف بن يعقوب إلى الحق، ولكن لم يقبلوا منه ، وشكوا فيما جاءهم به ، حتى توفاه الله فتنبهوا الى ما كان يقوله لهم ، وقالوا لن يبعث الله بعده أحداً كي نسير معه ، تمهيداً لأنفسهم حتى لا يؤمنوا لأحد ولو كان رسولاً ، قال تعالى:« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شكٍّ مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ، كذلك يضلّ الله من هو مسرف مرتاب »[2].

ولما لم يرعو ملوك الرعاة، ويقبلوا الحق الذي جاءهم به يوسف عليه السلام سلّط الله عليهم جماعات أكثر منهم ظلماً فأذاقوهم مرّ العذاب ،

---

(١) يوسف : ٣٥ .
(٢) غافر : ٣٤ .

فأذلوهم ، واستضعفوهم ، وبدؤوا يقتلون الرجال منهم ، ويستحيون النساء ، هؤلاء الطغاة هم من سكان وادي النيل الأصليين ، إذ قام أحد القادة من الجنوب وهو (أحمس) فانتصر على الشمال وحكامهم من الرعاة ، ووحّد البلاد ، واستبد بالسكان ، وأعطاهم الله الفرصة ليرجعوا إلى الحق ، ومكنهم من أعدائهم ، ووسع لهم رقعة أرضهم إذ وصلت دولتهم إلى حدود نهر الفرات أيام (تحتمس الثالث) و (رمسيس الثاني) اللذين حاربا الحثيين في بلاد الشام ، وانتهت الحروب بين الدولتين بصلح بعد معركة (قادش) المشهورة . ومع هذا الامتداد الواسع للدولة والخيرات الكثيرة التي جاءتها من كل مكان ، ما كانوا ليؤمنوا ويأخذوا العبرة من غيرهم ، ومما حدث لأسلافهم ، ومما تمّ لخصومهم ، فلم يتعظوا وإنما زادتهم الخيرات بطراً والنعمة كفراً والعمران تكبراً والقوة ظلماً ، وأخذوا حيطة من الذين يمكن أن يخلصوهم الحكم وهم الرعاة ، لذا قرروا قتل رجالهم واستحياء نسائهم لتبقى لهم السيطرة في الأرض ، والتمكّن في البلاد ، قال تعالى:« طسم ، تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »[1] .

أرسل الله إلى هؤلاء جميعاً موسى عليه السلام ليكون منقذاً لهم مما هم فيه من الظلم والطغيان ومحذراً لهم من عاقبة الأمر إن استمروا في غيّهم وتمادوا في عتوهم ، وكان فوق كل هذا من عدوهم الذين يخشون أن يقهرهم ويغلبهم على أمرهم ، وقد نجا موسى عليه السلام من القتل بإذن الله وبطريقة أدت إلى أن يربيه فرعون في بيته ، ويشرف عليه بنفسه ليكون له في المستقبل عدواً

---

(1) القصص : ١ ـ ٦

وحزناً ، قال تعالى:« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ، إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرّمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون »[1].

لقد نشأ موسى عليه السلام نشأة قوية بإذن الله ، وأصبح رجلاً يخشى بأسه ، وعلم أنه ليس من آل فرعون ، وإنما تربى هو عندهم ، لظلمهم وقسوتهم على الرعاة عامة وبني اسرائيل خاصة ، وأنه يمت بالأصل إلى بني إسرائيل الذين خافوا على ابنهم من القتل فألقوه في اليم ، ولربما كان هذا العلم قد جاءه من أمه التي أرضعته واعتنت به صغيراً فكان يلقاها أو يزورها على علم من فرعون وهو لا يعلم الصلة بين موسى وأمه ، ويظن أنه يقرّ لفرعون وأهله بالطاعة ، وأنه يعتقد أنه منهم ، فبينهم نشأ ، وعندهم تربى ، وبصلته مع أمه ومن يلتقي بهم عندها صار عنده ميل إلى قومه بني إسرائيل بالفطرة ، وكان بعض بني إسرائيل يعرفون ارتباط موسى بهم ، ولما كان الخلاف قائماً بين المصريين الأصليين وبين الرعاة ومنهم بنو اسرائيل فإنه من المحتمل أن يحدث تماس بين الأفراد الذين يعيشون معاً في كل وقت ، وأن تندلع شرارة الفتنة في كل لحظة ، قال تعالى:« ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضلّ مبين . قال رب إني

---

(١) القصص : ٧ ـ ١٣

ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين . فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى إنك لغوي مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين . وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب نجني من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل »[1].

وصل موسى عليه السلام إلى بلاد مدين، ووجد على بعض مائها جماعة يسقون أغنامهم ، ولمح امرأتين تمنعان أغنامهما من الورود إلى الماء حتى ينصرف الرعاة إذ لا تريدان الاحتكاك بهم ، ووجد الأمر غريباً ، فسأل الفتاتين وعرف سبب تأخرهما فأكبر فيهما العفة والحشمة ، وأقبل بصورة الرجل الشهم صاحب النخوة والمروءة وهو الذي آتاه الله القوة فرد أغنام الرعاة ، ورفع الصخرة عن البئر ، وهي الضخمة التي يعجز عن رفعها عدة رجال ، فاستغرب القوم فعلته وقوته ثم سقى للفتاتين غنمهما ، وتركهما تسيران إلى قصدهما ، وذهب هو يستظل تحت شجرة هناك ، يجد الراحة ، ويسبح فكره إلى الوراء وماذا خلّف في مصر؟ ولا يعرف أحداً في هذه الديار ، وبينما هو كذلك إذ جاءته إحدى الفتاتين تطلب منه أن يسير معها إلى أبيها ليتعرف عليه إكراماً لما قام به . . . . . ولم يكن له إلا ليمتثل ، وسار أمامها بسبب الريح بعد أن كان خلفها . . . ووجد أباها . . فتعارفا ، ووجده رجلاً صالحاً ، وطمأنه على أنه قد وصل إلى كنف الأمان . . . . واستأجره ليعمل عنده ٨ ـ ١٠ سنوات مقابل أن يزوجه إحدى ابنتيه ، وعمل عنده ، وتم العقد .

انتهت المدة التي اتفقا عليها موسى عليه السلام وأبو زوجه ذلك الرجل

---

(١) القصص : ١٤ ـ ٢٢.

الصالح ، فأراد أن يعود بأهله من حيث جاء من مصر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وفي الطريق بعثه الله وأمره أن يسير إلى فرعون ، قال تعالى:« ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رَبِّ إني لما أنزلت إلي من خير فقير . فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ، قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين . قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ، ستجدني إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ، والله على ما نقول وكيل . فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً ، قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولىّ مدبراً ولم يُعقّب ، يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين »[1].

رأى موسى عليه السلام أن المهمة صعبة فهو يخاف على نفسه من القتل في مصر إذ كان قد قتل نفساً وفرّ منهم عندما علم أن القوم يريدون أن يقتلوه ، وكذلك فهو ليس بالفصيح إذ يتلعثم أثناء الحديث ، ولكن المهمة لا بدّ له من أن يقوم بها ويؤديها ، فدعا ربه أن يدعمه بأخيه هارون الذي هو أفصح منه لساناً ، فاستجيبت دعوته ، قال تعالى:« قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون . وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فارسله معي رداً يصدقني ، إني

---

(١) القصص : ٢٣ ـ ٣٢ .

أخاف أن يكذبون . قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما ، بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون »[1].

وسار موسى عليه السلام حتى دخل مصر خائفاً يترقب ، ووصل إلى داره، وكلّم أخاه هارون ، فوجد أنه قد أوحي إليه ، وأوكل بالمهمة مع أخيه موسى عليهما السلام ، ولكنهما خافا من الذهاب إلى فرعون خشية طغيانه على الرغم مما أوحي إليهما بالاطمئنان وعدم الخوف ، ولكنها النفس البشرية ، قال تعالى: «إذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري. إذهبا إلى فرعون إنه طغى. فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى . قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى . فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى »[2]. ولقد هزتهما الآية هزاً « قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى » وهزت مشاعرهما ، فالله الذي بيده كل شيء ، ويملك نفس فرعون وغيره إن شاء أخذها في كل لحظة، إنه معهما يسمع ما يقولون وما يرد عليهما فرعون ويرى ما يتصرف، فعليهما إذن ألا يخافا .

ذهب موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون ، وكان اللقاء الأول ونأخذه من كتاب الله « إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى . قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربي في كتاب ، لا يضلّ ربي ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماءً ، فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى. كلوا وارعوا أنعامكم ، إن في ذلك لآيات لأولي النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى »[3]. ولما وجد فرعون نفسه عاجزاً عن الجواب

---

(١) القصص : ٣٣ ـ ٣٥ .

(٢) طه : ٤٣ ـ ٤٧ .

(٣) طه : ٤٨ ـ ٥٦ .

أمام الحق الواضح لجأ إلى إظهار المنة والفضل على موسى في التربية والتنشئة ، قال تعالى : « قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين . قال فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين . وتلك نعمة تمنها علي إن عبّدت بني إسرائيل »[1] .

وفي اللقاء الثاني أراد فرعون أن يظهر قوته على موسى وأخيه هارون ، وأن يهدد من يفكر في الإيمان بما جاء به من قومه ، وأن يسخر من قول نبي الله . . . . فجمع لذلك حشداً من الناس من أعوانه ومخلصيه وبعض وجهاء بني إسرائيل وعندما حضر الجمع بدأ فرعون بتوجيه السؤال إلى موسى عليه السلام قال تعالى :« قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما ، إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ، إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين . قال أولو جئتك بشيء مبين . قال فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين . قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قال أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم »[2] . وهذا فعل الجبابرة والطغاة إذ جاءهم الحق قالوا لمن يحمله إنه مجنون ، واتخذوا طريق التهديد . وعندما جاءهم موسى بالآيات البينات قال فرعون عنه إنه ساحر ، ووجه السؤال إلى وجهاء بني إسرائيل أنه يريد أن يسير بكم ويخرجكم من أرضكم فما رأيكم ؟ فما كان منهم إلا أن يقولوا له . إفحص سحره مع كبار السحرة ، وكان السحر شائعاً آنذاك ومنتشراً ، فاستحسن فرعون هذا الرأي ، وضرب موعداً لموسى ليلتقي مع السحرة ، ليريه وليري الناس جميعاً

---

(١) الشعراء : ١٨ - ٢٢ .

(٢) الشعراء : ٢٣ - ٣٧ .

ان موسى قد تعلم السحر أثناء غيابه ، وهو يستعمله ليخرج بني إسرائيل من مصر .

وجاء اليوم المحدد ، وجمع الناس ، وجاء السحرة ، وخرج فرعون وحاشيته ، وجاء موسى عليه السلام ووقف فرعون خطيباً في ذلك الحشد « ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ، أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين »[1] . هذه المفاهيم التي تقوم عليها الجاهلية دائماً وفي كل مكان ، يقوّمون الأمور بالمادة ، ويقدرون الرجال بها ، ويعرفون الحق بواسطتها ، وأحب السحرة أن يستفيدوا من هذا الخلاف فوقف كبيرهم ، فقال تعالى : « وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم لمن المقربين »[2] . ووقف موسى عليه السلام خطيباً في الحشد ووجه كلامه للسحرة فقال تعالى : « قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى »[3] . ثم تكلم السحرة فقال كبيرهم : « فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً ، وقد أفلح اليوم من استعلى . قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى »[4] . « قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون »[5] . وخاف موسى عليه السلام مما رأى « قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس في نفسه

---

(١) الزخرف : ٥١ ـ ٥٤ .

(٢) الأعراف : ١١٣ ـ ١١٤ .

(٣) طه : ٦١ .

(٤) طه : ٦٢ ـ ٦٥ .

(٥) الشعراء : ٤٣ ـ ٤٤ .

خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى . فألقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى »[1] فبطل الباطل وظهر الحق ، واهتاج أصحاب البغي والعدوان وألقيت الكلمات جذافاً ، قال فرعون:« قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أيّنا أشد عذاباً وأبقى »[2].

قال السحرة : « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى »[3].

لقد قتل فرعون السحرة ، وبطش بالناس ، فدبّ الخوف ووقع الذعر ، ولذا لم يؤمن مع موسى عليه السلام إلا القليل وحتى من قومه خوفاً من فرعون وملئه ، قال تعالى:« فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ، وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين »[4].

وابتدأت المفاصلة بين المؤمنين والكافرين فسكن المؤمنون بعضهم بجانب بعض ، واتخذوا بيت موسى قبلة لهم بناءً على أوامر ربهم ، قال تعالى:« وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا

---

(١) طه : ٦٦ ـ ٧٠.
(٢) طه : ٧١.
(٣) طه : ٧٢ ـ ٧٦ .
(٤) يونس : ٨٣ .

الصلاة ، وبشر المؤمنين »[1] .

وأخذ الله آل فرعون بالسنوات العجاف ونقص الأموال وقلة الأثمار لعلهم يرجعون إلى ربهم ويتوبون إليه ، ولكن ذلك لم ينفعهم شيئاً ، ولكن إذا جاءهم الخير حسبوا ذلك حسن في أعمالهم وتخطيطهم ، وإذا أصابهم الشر تشاءموا وقالوا لوجود موسى بيننا ، ويظن بعضهم أن هذا من قوة سحر موسى فما يزيدهم ذلك إلا عتواً في الأرض واستكباراً ، ثم أرسل الله عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع لعلهم يتذكرون بهذه الآيات فما كان لينفعهم ، وإنما كلما جاءتهم آية قالوا يا موسى أدع لنا ربك يزيلها عنا فإذا تمّ آمنا بما آمنت ، ولنرسلنّ معك بني إسرائيل كما تريد وترغب ، حتى إذا خفف الله عنهم نكثوا بعهودهم ، ونقضوا ما وعدوا به ، وتنكروا لما قالوا . . . حتى جاء أمر الله ، قال تعالى:« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون. وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلنّ معك بني إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون »[2] .

ووقف بجانب فرعون كل قوى الشر ، وأصحاب المصالح ولو كانوا من قوم موسى ، ووقف بجانب موسى عليه السلام كل قوى الخير ولو كانوا من قوم فرعون . وتضافرت عناصر السوء فكان يمثل الطغيان فرعون ، ويمثل المصلحة هامان ويمثل قارون أولئك الذين أبطرتهم النعمة ، مع أن قارون كان من قوم

---

(١) يونس : ٨٧ .

(٢) الأعراف : ١٣٠ ـ ١٣٥ .

موسى ولكن مصلحته اقتضت أن يكون بجانب فرعون ، قال تعالى: «إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين »[1]. ويقول الله سبحانه وتعالى في شأن هذه القوى الثلاث: «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب . فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ، وما كيد الكافرين إلا في ضلال . وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد »[2]. أما الذين آمنوا من آل فرعون فقد كانوا يكتمون إيمانهم خوفاً من فرعون ورهباً من سلطته ، فلما كان إنقسام الفريقين والمفاصلة التامة بدأ كل يأخذ صفه إما بين المؤمنين أو بين الكافرين إذ لا رابطة غير رابطة العقيدة ، ولا وشيجة تقوم بين الطرفين غير ذلك ، قال تعالى: «وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد . ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ، ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب »[3].

وكان فرعون يتهكم ويحاول أن يظهر سلطته وقوته وأنه بإمكانه أن يفعل

---

(١) القصص : ٧٦ .

(٢) غافر : ٢٣ - ٢٦ .

(٣) غافر : ٢٨ - ٣٤ .

الكثير والمستحيل ، وكان هامان يظهر أيضاً أنه ينفذ كل ما يطلبه فرعون ولو كان مستحيلاً ، قال تعالى « وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ، وما كيد فرعون إلا في تباب »[1] .

ولما كثر ظلم فرعون وقومه وحاشيته ، وزاد فسادهم ، ولم يرعووا مع كثرة الآيات كان لا بدّ من أن ينالهم ما نال الأقوام التي سبقتهم ، فأوحى الله إلى موسى أن يسير مع بني إسرائيل باتجاه الشرق ، ولحقهم فرعون وجيشه وكبار قومه ، فكانت النتيجة أن غرق الظالمون بكفرهم ، ونجا موسى وقومه ، قال تعالى « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ، لا تخاف دركاً ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى »[2] .

ومع موت فرعون وأسرته وكبار قومه ضعفت الدولة ، ولم يبق فيها من يتسلم الأمر ، وكانت دولة الفرس قد قويت ، فاتجهت نحو مصر ودخلتها بقيادة (قمبيز) ، واستمر الفرس ، حتى قوي أمر الإغريق ، فجاء الاسكندر الكبير المقدوني ، واحتلها عام ٩٥٤ قبل الهجرة ، ومع وفاة الاسكندر حكم البطالمة خلفاء الاسكندر مصر ، ثم جاء الرومان ، وأصبحت مصر ولاية من ولاياتها ، ثم انتشرت فيها النصرانية ، وأضحت كنيستها خاصة وتختلف عن كنيسة الدولة الرومانية الأمر الذي جعل بينهما خلافاً ، وعرف سكانها بالقبط أو الأقباط ، واستمر ذلك حتى جاء الإسلام ، فأنقذ السكان مما هم فيه .

---

(١) غافر : ٣٦ ـ ٣٧ .
(٢) طه : ٧٧ ـ ٧٩ .

في جزيرة العرب

ذكرنا أن سام بن نوح قد انحدر مع أبنائه وذريته من الجبال حيث رست سفينة أبيه ، وبعد مدة من الحياة هناك اتجه إلى جنوبي بلاد الرافدين مهدهم الأول فاستقرت هناك جماعة تكاثرت فيما بعد وعرفت باسم السومريين ، على حين انطلقت جماعات أخرى وتوزعت في الجزيرة العربية ، ومنهم عاد ، وثمود ،وجديس ، والعماليق ، وإذا كانت العماليق قبيلة خاصة إلا أن هؤلاء كانوا كلهم من العمالقة إذ كانت أجسامهم أكثر طولاً من الذين ظهروا فيما بعد ، كما أنهم كانوا من الذين يمتد بهم العمر أكثر ، ونستطيع أن نعد سكان الجزيرة قد كانوا كلهم بهذا الشكل حتى عام ١٦٠٠ قبل الهجرة تقريباً ، وإن بقي لهم أحفاد إلى ما بعد ذلك ، وعرفوا بهذا الإسم وإن لم يكونوا يحملون ذلك الجسم من الطول ، ولا يعمرون ما كان يعمر به أسلافهم .

وفي هذه البيئة المتشابهة في هذه المنطقة كلها ، ظهرت بداية اللغة التي عرفت فيما بعد باسم (العربية) ، ومنها حملت البيئة إسمها فأصبح يطلق عليها (بلاد العرب) .

أما عاد فقد أقاموا في منطقة الأحقاف في الوادي الذي يعرف اليوم باسم حضرموت ، وامتدوا حتى البحر ، حيث تعد مدينة (الشحر) الذي تقع على الساحل شرق مدينة (المكلاّ) من المدن التي أقيمت على أنقاض ما أشادت عاد . وتعد قبيلة عاد أنها أول قبيلة عبدت الأصنام بعد الطوفان ، وكانت أصنامهم ثلاثة وهي : (صدا) و(صمودا) و(هرا) ، وكانوا أقوياء أصحاب شدة وبأس ، وقد أشادوا القصور العالية فوق المرتفعات ، وأجرى الله لهم الوادي ، فزرعوا الوادي وسقوا زراعاتهم ، فكانت الجنات ذات

الزروع والعيون، وعتوا عن أمر ربهم، فأرسل الله إليهم نبياً منهم هو هود عليه السلام ، فدعاهم إلى عبادة الله جلّ شأنه ، فردّوا ذلك ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وغرّتهم قوتهم ، وما شيدوا ، قال تعالى : « وإلى عاد أخاهم هودا، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ، فانتظروا إني معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين »[1]. وكانوا قد كثروا وزاد عددهم حتى انتشر (قحطان بن عاد) وذريته في اليمن ، وأسسوا مجموعة خاصة . أما عاد فعندما عتوا عن أمر ربهم أهلكهم بريح صرصر ، قال تعالى : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصرٍ عاتية . سخّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية . فهل ترى لهم من باقية »[2].

وأما ثمود التي أقامت في الحجاز بين المدينة وتبوك في شمال وادي القرى في منطقة (العلا) ، وقد كانت بعد هلاك قوم عاد ، ونطقوا بالعربية أيضاً . وجعلوا أوثاناً لهم عبدوها من دون الله ، فأرسل الله إليهم صالحاً ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فرفضوا ذلك ، وردّوا عليه كما ردّت الأقوام الأخرى ، فقالوا : مجنون ، وقالوا : ساحر ، وسفيه و . . . . وقد اجتمعت

---

(١) الأعراف : ٦٥ ـ ٧٢ .
(٢) الحاقة : ٦ ـ ٨ .

ثمود يوماً في ناديها ؛ فجاءها رسول الله صالح عليه السلام فدعاها إلى الله عز وجل وذكّرهم وحذّرهم ووعظهم ، فأرادت سفهاء القوم أن تسكته بطلب معجزة، فقالت له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة هناك ناقة بشكل معين ، وبدؤوا يضعون لها أوصافاً معينة حتى انتهوا قالوا : إن فعلت ذلك آمنا بما جئتنا وإلا فنحن على غير استعداد لأن نستمع إليك بحرف واحد ، فأنت وما تشاء ، فأخذ عليهم عهداً وموثقاً بما قالوا ، ثم انصرف يدعو ربه، فاستجاب له، وكانت الناقة، فقال لهم صالح هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ، ولهذه الناقة يوم تشرب فيه ماء ينبوع البلدة ، وللسكان يوم يشربون فيه ، ولهذه الناقة أن ترعى حيث شاءت ، فآمنت جماعة من قوم صالح ، واستمرت جماعة أخرى على كفرهم وضلالهم وعنادهم ، وقد تضايق المتكرون من أمر هذه الناقة ، فاجتمعوا واتفق رأيهم على أن يعقروها ، ويتهوا منها ، وأغرت بعض النساء سفهاء القوم بقتل الناقة ، وكان عددهم تسعة رجال قال تعالى :« وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون »[1]، وقد حسّن هؤلاء الرهط للقبيلة قتل الناقة ، وأقدموا هم على عقرها ، قال تعالى :« فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين »[2]. فمكثوا ثلاثة أيام حسب ما وعدوا قال تعالى :« فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب »[3]، وبعد هذا الموعد جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم فأصبحوا جاثمين في دارهم جثثاً لا حراك فيها كأن لم يغنوا فيها. وقد فكروا بقتل صالح وتآمروا على ذلك ، قال تعالى :« قالوا تقاسموا بالله لنبيّتنّه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون »[4].

---

(١) النمل : ٤٨ .

(٢) الأعراف : ٧٧ .

(٣) هود : ٦٥ .

(٤) النمل : ٤٩ ـ ٥٠ .

وأقام اسماعيل عليه السلام مع أمه هاجر في جبل (فاران) وهي أرض مكة. وانبجست مياه عين زمزم وكانت قبيلة (جرهم) قد جاءت من اليمن باتجاه الشمال، ومروا على تلك المنطقة، ووجدوا الماء، فطلبوا من (هاجر) أن تسمح لهم بالإقامة بالقرب منها على مقربة من الماء، فوافقت ونشأ ابنها إسماعيل بينهم، وتعلم لغتهم فاستعرب. وتزوج منهم بعد أن ماتت أمه هاجر.

وكان إبراهيم الخليل يزور أهله وولده بين المدة والأخرى، يطمئن عنهم، ويتفقد الأحوال، وقد قام مع ابنه إسماعيل عليهما السلام في بناء البيت الحرام، وذلك في حدود ٣٨٠٠ قبل الهجرة. وبعث اسماعيل بن ابراهيم نبياً ورسولاً لأولئك القوم الذين عاشوا بالقرب منه.

وفي الوقت نفسه كان ابن إبراهيم الخليل الآخر وهو مدين من زوجه (قنطورا بنت يقطن) يعيش في المنطقة الشمالية الغربية من الجزيرة العربية، والتي تعرف اليوم باسم بلاد مدين، ولما كثرت ذريته من بعده، وبدؤوا يصدوّن عن سبيل الله ويبغونها في الأرض عوجاً، أرسل الله إليهم رسولاً منهم يذكّرهم بآيات الله عليهم، وهو نبي الله شعيب عليه السلام، ويبدو أنه كانت هذه القبيلة منطقة واسعة تشمل الأودية المتجهة نحو خليج العقبة ونحو شمال البحر الأحمر الذي توجد فيه اليوم ما يسمى باسم (مغاير شعيب)، وكانوا في هذه الجهة ينقصون الكيل والميزان فإذا وزنوا للناس أنقصوهم حقهم، وإذا كالوا لأنفسهم زادوا في نصيبهم. كما شملت المنطقة أرض تبوك، وسكان هذه الجهة قد عبدوا شجرة ضخمة وسط الأيكة وهي غابة معروفة هناك إضافة إلى عدم الوفاء في الكيل والميزان. وشملت المنطقة أيضاً جزءاً من أرض معان جنوبي الأردن المعروفة الآن، وقال تعالى في حق المجموعة الأولى: «وإلى مدين أخاهم شعيباً، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط. ويا قوم أوفوا

المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد »[1] . فرفضوا دعوته ، وتنكّروا إلى ما أمرهم به ، وأبوا أن يتركوا قطع الطريق ، وأخذ عشر أموال المارة ، ولما أصروا على بغيهم وتنكرهم للطريق المستقيم أخذتهم الصيحة . فأصبحوا في ديارهم جثثاً كأن لم يغنوا فيها ، قال تعالى: « ولما جاء أمرنا نجّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمود »[2] وكذلك كان شأن أصحاب الأيكة سكان تبوك ، إذ اتهموا نبيهم شعيب بالسحر ، وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب إن كان صادقاً ، فإنهم لا يخافون ، ويعلمون عدم صدقه ، وعدم صحة ما يقول ، وأنزل الله في حقهم « كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجري إلا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين . قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربي أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم »[3] إذن جاءت الصيحة إلى جماعة من قوم شعيب ، وأصاب جماعة أخرى منهم عذاب يوم الظلة .

ويبدو أن شعيباً كان ذا قوة فيهم ، وعصبية كبيرة أخافتهم من قتله ، قال تعالى: « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك

---

(1) هود : ٨٤ ـ ٨٧ .

(2) هود : ٩٥ .

(3) الشعراء : ١٧٦ ـ ١٨٩ .

لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز . قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً ، إن ربي بما تعملون محيط »[1] .

ومن أبناء عاد (قحطان) الذي أقام في منطقة اليمن ، وكثر نسله ، فعمروا اليمن ، وتزايدوا بسرعة ، فكانت تخرج منهم جماعات باتجاه الشمال والشمال الشرقي ، ومنهم قبيلة جرهم التي أقامت في مكة ، وصاهرت إسماعيل ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام .

ولقد أقام القحطانيون في بلاد اليمن دولة اشتهر أمرها ، وكثرت أسفارها ، وركب البحر أبناؤها ، وعرفت هذه الدولة باسم (معين) ، وكان مركزها يقع إلى الشمال الشرقي من صنعاء ، وحكمتها أسرة دامت مدة من الزمن ، ثم دالت ، وجاءت أسرة أخرى عرفت باسم (سبأ) نسبة إلى جدها سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقد اهتمت بالزراعة ، وأقامت لذلك السدود ، وكان من أشهرها سد مارب ، وقد عبد أهل سبأ الشمس والقمر والنجوم ، ولم ينتبهوا إلى ما أصاب غيرهم من الأمم المجاورة ، وكان من آخرهم (بلقيس) التي انتقلت إلى فلسطين في عهد سليمان بن داود عليهما السلام حوالي العام ١٦٠٠ قبل الهجرة الأمر الذي جعل الدولة ضعيفة ، فأهملت شؤون الزراعة ، وضعفت العناية بالسدود ، فتهدمت ، وانهار سد مارب فكان سيلاً عارماً جعل الناس يفرون من منطقتهم ، ويتجهون إلى مختلف الجهات ، وانقلبت الجنان الوارفة والحدائق الغناء إلى مناطق شبه جافة لا ينبت فيها إلاّ الأثل وقليل من السدر ، قال تعالى :« لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكُلٍ خمطٍ وأثلٍ وشيءٍ من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازي إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرةً وقدّرنا فيها

---

(١) هود : ٩١ ـ ٩٢ .

السير ، سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور »[1] . وذلك جزاؤهم إنهم لم يؤمنوا كما آمنت ملكتهم بلقيس ، ولم يقبلوا دعوة سليمان بن داود لهم ، بل لجوا في عتوهم فظلموا أنفسهم ، فعاقبهم الله بذلك العقاب المادي البسيط عسى أن يرجعوا إلى أنفسهم .

لم يخرج كل أهل اليمن من بلدتهم بعد خراب سد مأرب ، وإنما بقيت جماعات منهم متفرقة متوزعة بعيد بعضها عن بعض الأمر الذي أدى إلى ظهور عدد من الإمارات الصغيرة ، تشمل الواحدة منها منطقة زراعية ، تسمى (محفداً) ، ويعرف سيدها باسم (ذو) أي صاحب ، ويجتمع عدد منها بيد أحد (الأذواء) فتؤلف (مخلافاً) ، ويسمى سيدها (قَيْل) ، ولذا فقد كانت اليمن تتألف من عدد من المخاليف ، التي تشكل منها النواة الأولى للدولة . وكانت منطقة (ظفار) قد بدأ يعلو إسمها ، فلما انتهارت دولة (سبأ) حلت محلها حكومة ظفار وعرفت باسم دولة حمير . وأصبح الملك يعرف باسم (ملك سبأ وحضرموت وذوريدان) على حين كان أيام المعنيين يسمى ملكاً ، وأيام سبأ أطلقوا على الحاكم في البداية إسم (مكرب) ، ثم أعطوه لقب ملك . ولكنه في أواخر دولة حمير أصبح يعرف باسم (تبع) وجمعة (تبابعه) . وازدهرت تجارة أهل اليمن في عهد كل دولها فوصلت إلى الشام شمالاً ، وقطعت اليمّ باتجاه إفريقية والهند . وعندما قويت دولة الرومان رغبت في السيطرة على البحر الأحمر لتأمين تجارتها ولكن عجزت لوجود الدولة اليمنية التي وقفت في وجه (جالوس) حاكم مصر من قبل الرومان .

وكانت القبائل التي بقيت في اليمن بعد خراب سد مأرب هي : مذحج ، وكندة ، وحمير ، والأشعريون ، وبجيلة ، وأنمار ، ومن أنمار كانت خثعم .

أما القبائل التي خرجت فهي الأزد واتجه فرع منها نحو عُمان وعرفت

---

(١) سبأ : ١٥ - ١٩ .

هناك باسم أزد عمان ، واتجه فرع آخر نحو جبال عسير وعرف باسم أزد شنوءة ، والغساسنة الذين ذهبوا إلى الشام ، والمناذرة الذين أقاموا بالعراق ، والأوس والخزرج الذين سكنوا يثرب ، وخزاعة التي حلت في مكة محل جرهم .

وكانت بعض فرق من اليهود قد جاءت لقتال العمالقة في بلاد الحجاز ، فقضت على أكثرهم ، وأقامت مكانهم في تيماء وفدك وخيبر ووادي القرى ويثرب ، وكانت تفرّ إلى هذه القرى بعض الجماعات اليهودية عندما تحلّ بدارهم قارعة أو يحلّ بهم عذاب أليم سواء أكان أيام بختنصر البابلي أم أيام الرومان ، وقد استطاع بعضهم أن يصل إلى اليمن وأن يؤثر على آخر ملوكها وهو (يوسف ذو نواس) الذي تعصب لعقيدته ، وجاء إلى نجران وكانت النصرانية قد انتشرت بين أهلها ولم يلحقها بعد التحريف الذي لحق غيرها من المناطق ، فدعاهم إلى عقيدته ، فأبوا عليه ، فأحرقهم في الأخدود ، ونجا أحدهم فسار إلى قيصر الروم فطلب منه نجدتهم ما داموا يحملون عقيدة واحدة ، فأرسله إلى الحبشة ، وكانت قد انتشرت بينهم النصرانية واتبعها غالبية السكان ، فبعث النجاشي حاكم الحبشة جيشاً قوامه سبعون ألفاً وعليه (أرياط) ومعه (أبرهة الأشرم) ، واستطاع هذا الجيش أن يدخل اليمن ، وأن يقضي على دولة حمير ، ويتخلص من ذي نواس ، ويصبح (أرياط) حاكم اليمن من قبل الحبشة ، إلا أن أرياط لم يلبث أن اختلف مع أبرهة الأشرم ، واستطاع الأخير أن ينتصر ، وأن يقضي على خصمه ، وأن يصبح سيد اليمن ، ولم يكن لملك الحبشة بد من أن يعترف بهذا التغيير .

بنى أبرهة الأشرم كنيسة كبيرة في صنعاء ، وأسماها (القليس) ، وأخبر بذلك ملك الحبشة ، وأراد أن يوجه أنظار العرب إليها ليحجون إليها بدلاً من بيت الله الحرام في مكة ، ولكنه لم يستطع ، لذا قصد الكعبة ليهدمها كي يضطر العرب للحج إلى القليس ، وسار بجنده ، وكلما حاربته قبيلة انتصر عليها ، حتى وصل إلى الطائف ، فاستقبلته ثقيف ، وأرسلت معه (أبا رغال) ليدله على

الطريق ، إلا أن الله قد ردّه بأن أرسل له طيراً أبابيل ، قال تعالى:« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، الم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول »(١). فهلك أبرهة وأكثر جنده ، فقام ابنه (يكسوم) من بعده في اليمن ، ثم أخوه مسروق بن أبرهة ، وبعد ذلك استعاد الحكم سيف بن ذي يزن الحميري الذي سار إلى الروم فلم ينصروه ، فذهب إلى النعمان بن المنذر عامل الفرس على الحيرة ، فوفد به إلى كسرى ملك الفرس فأنجده ، وانتصر على الحبشة ، وقتل مسروق بن أبرهة واستعاد ملكه ، بعد أن حكمت الحبشة اليمن إثنتين وسبعين سنة ، وبقي الفرس في اليمن حتى بعثة رسول الله ﷺ ، وكان والي الفرس على اليمن هو (باذان) وقد دان بالإسلام هو ومن معه . والعرب الذين أقاموا باليمن ومن خرج منها فقد عرفوا بالعرب العاربة لأنهم أصل العرب وأول الذين تكلموا العربية إذ أنهم ينتمون إلى قحطان بن عاد من نسل سام بن نوح عليه السلام .

وأما العرب المستعربة فهم الذي ينتمون إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام إذ لم يتكلم العربية حتى جاورته قبيلة (جرهم) وصاهرها ، وتعلم العربية منها ، وعندما توفي تولى مكانه ابنه نابت ثم تغلبت (جرهم) على مكة وحكمتها ، واستمرت في حكمها حتى بغت ، وأكثرت الفساد فيها ، وغدت الفاحشة في البيت الحرام ، وزنا رجل اسمه (أساف) بامرأة يقال لها (نائلة) ، وكانت عقوبة الله عليهما مباشرة ، وكان لهما تمثالان في الكعبة ، ليعتبر الناس ، وكان أن أدى إلى عبادة هذين التمثالين فيما بعد . ولم يحدث قتال بين (جرهم) وبني إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم لصلة القربى بينهما ولحرمة البيت .

وجاءت خزاعة من اليمن إثر سيل العرم ، وسكنت قرب مكة ، فلما بغت (جرهم) قامت إليها خزاعة ، ووقف بنو إسماعيل على الحياد ، فتغلبت

---

(١) سورة الفيل .

خزاعة ، وأجلت جرهم عن البيت ، فعادت إلى اليمن على حين حكمت خزاعة مكة ، وفي أيامها دخلت عبادة الأصنام ، إذ أن أحد حكامها وهو (عمرو بن لحي الخزاعي) قد خرج من مكة إلى الشام ، فلما وصل إلى (مؤاب) من أرض (البلقاء) وجد فيها قوماً من العماليق يعبدون الأصنام، فقال لهم: وما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها نستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا . فقال لهم : الا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه . فأعطوه صنماً يقال له (هُبل) فقدم به مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه . كما يقال : إن بني إسماعيل وكانوا قد أبعدوا عن أمر البيت فكانوا إذا خرجوا منها أخذوا معهم حجراً من حجارتها ، فإذا أظعنوا في مكان وضعوه ، وطافوا به على أنه جزء من الكعبة ، فانتشرت بعد ذلك عبادة الأصنام والأوثان . وهكذا بُدِّل دين إبراهيم عليه السلام ، ولم يبق من أثره إلا تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة ، والوقوف على عرفات ومزدلفة ، وهدي البُدن ، والإهلال بالحج والعمرة .

وتكاثر بنو إسماعيل ، وكانت كنانة قد أقامت قريباً من البحر ، إلى الغرب والجنوب الغربي من مكة ، وقريش فرع منها ، إذ أن قريش إنما هو فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة ، وقد استطاع أحد وجهاء قريش وهو قصي بن كلاب الجد الرابع لرسول الله ﷺ أن يجُلي خزاعة عن مكة ، وأن يحلّ هو محلّها ، وكان سيد قريش آنذاك . وكان لقصي من الأولاد عدد أشهرهم عبد مناف الذي كان له هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل فتقاسموا الزعامة ، ونافس أمية بن عبد شمس عمه هاشماً وكان لهاشم عبد المطلب الذي كان سيد مكة يوم حاول أبرهة الأشرم غزوها ، ولما رأى أنه لا يستطيع ردّ الأحباش عنها خرج إلى ظاهر مكة وقال : إن للبيت رباً يحميه ، فردّ الله كيد الأحباش في نحرهم ، وأهلكهم بالطير الأبابيل ـ كما ذكرنا ـ وعرف هذا العام بعام الفيل إذ كان أبرهة يركب فيلاً عظيماً ، وفي هذا العام ولد سيد البشر محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه أفضل الصلاة والسلام قبل الهجرة باثنين وخمسين عاماً .

وكان أبناء إسماعيل قد توزعوا في أماكن متعددة فكل من ينتمي إلى فهر (قريش) يعد قرشياً ، وهم إثنا عشر بطناً ، ومن لا يتصل به من ولد إسماعيل يعد من العرب المستعربة أو العدنانيين ، وليس من قريش . ومن أشهرهم : عبد القيس في البحرين ، وبنو حنيفة في اليمامة ، وتغلب في الجزيرة الفراتية وعبس وشيبان وغطفان في نجد ، وثقيف وسليم وهوازن في شرقي مكة وشمالها وغفار وجهينة وبلى وتنوخ على الساحل وأشجع وفزارة حول المدينة .

وانتشرت عبادة الأصنام في كثير من ديار العرب ، فقد كان صنم (ود) في دومة الجندل (الجوف) ، وهو لكلب وقضاعة ، وكان (يعوق) لقبيلة مذحج ، وكانت أرض الطائف مقره ، وكان (نسر) في اليمن ، وتعبده حمير ، وهو على شكل طير ، كما كان (يغوث) بأرض اليمن أيضاً ، وتعبده همدان .

إذن فإن الأنبياء الذين جاءوا لسكان بلاد العرب كان عددهم قليلاً ، وذلك قبل محمد بن عبد الله ﷺ وهم : هود وقد كان في الأحقاف حوالي عام ٤٦٠٠ قبل الهجرة وكان قد أرسل لقبيلة عاد .

صالح وقد كان في وادي القرى حوالي عام ٤٤٠٠ قبل الهجرة وكان قد أرسل إلى قبيلة ثمود .

شعيب وقد كان في بلاد مدين حوالي عام ٣٤٠٠ قبل الهجرة وكان قد أرسل لشعب مدين وما حولها .

إسماعيل وقد كان في مكة المكرمة حوالي عام ٣٨٠٠ قبل الهجرة وكان قد أرسل لقبيلة جرهم .

وعلى هذا تكون جزيرة العرب قد بقيت بدون نبي أكثر من ٣٤٠٠ عام دون رسول منذ أيام شعيب عليه السلام عام ٣٤٠٠ قبل الهجرة وحتى بعثة رسول الله ﷺ عام ١٣ قبل الهجرة ولهذا كانت بعثة محمد بن عبد الله عليه أفضل

السلام على فترة من الرسل ، وكان الناس قد غيّروا كثيراً وبدّلوا ، فأشركوا بالله وعبدوا الأصنام ، وارتكبوا المحرمات ، وفعلوا المنكرات ، وظلموا أنفسهم ، وظلموا الناس ، وما انتشر في البلاد من عقائد نصرانية ويهودية لم تفعل شيئاً ، لأن أتباعها قد حرّفوا ما جاءت به من صفاء ، واتبعوا أهواءهم ، ولم تكن أعمالهم أفضل بكثير من أعمال المشركين الذين يعيشون معهم إن لم نقل أنها كانت تتشابه في كثير من الطقوس والشعائر ، ويتفق بعضها مع بعض . هذا إضافة إلى الجهل وقبول الخرافة والإيمان بالأساطير ، ولعلنا نستطيع أن نلقي أضواء على بعض جوانب حياة المجتمعات في تلك الأرض قبيل بعثة رسول الله ﷺ وباختصار شديد .

كان أكثر السكان في البوادي يحيون حياة الرعي والبداوة ، ويتنقلون باستمرار بحثاً عن الماء والمرعى ، ولا يجدون مجالاً للاستقرار والراحة ، وحيث وجدوا ما يسعون إليه ضربوا خيامهم ، وأخذوا يفتشون عن مكان سواه ، وكثيراً ما يحصل التنازع بين القبائل على إحدى البقاع التي تتوفر فيها المراعي أو عرفت بوجود المياه فيها ، ولكل قبيلة منازلها المعروفة وبقاعها المحدودة لا تتعداها ، وتقوم الحروب بين هذه القبائل ، وقد تستمر السنوات ويكون السبب تافهاً لدرجة . وتقوم حياة هؤلاء السكان على تربية الماشية وما تنتجه من ألبان ولحوم وأصواف ، واقتصرت بيوتهم على الخيام لسهولة نقلها معهم حيثما رحلوا ، وسهولة إقتلاعها وضربها حيثما حلوا .

وإذا وجدت المياه في مكان قامت عليه واحة ، وقامت معه الزراعة ، وقامت معه البلدة ، وإن كان غالباً ما تكون الزراعة بأيدي العبيد إذ يأنف الناس الزراعة ، ويعدونها من عمل الضعفاء كالنساء والعبيد ، أما هم فمهمتهم الانتقال وراء الحيوانات أو السعي وراء الغزو ، وإذا قامت البلدة شيدت دورها من المادة التي تقدمها لهم الطبيعة بسخاء ، فتكون من الحجارة أو الطين ، مثل

(يثرب) و(الطائف) ، و(حجر) وغيرها ، كما أن المنطقة التي تقع على أطراف البادية توجد فيها بعض المدن التي قامت بسبب وجود أسواق يتبادل فيها سكان البادية والحضر منتوجاتهم الأمر الذي جعل عدداً من المدن تقوم على طول أطراف البادية وتشتهر بالتجارة مثل مكة ويثرب ودومة الجندل وغيرها . وغدا لهذه المدن تجارات واسعة تتجاوز الجزيرة فكان أهل مكة يصلون إلى بلاد الشام في فصل الصيف وإلى اليمن في فصل الشتاء ، وكان سوق دائم في دومة الجندل ، لذا كانت المدن هذه طريقاً للقوافل ، فهي إذن سوق ومركز على طرق التجارة ، كما كانت هناك أسواق موسمية ، وأشهرها عكاظ التي تعقد في موسم الحج في كل عام .

ولكل قبيلة أفرادها الذين يفتخرون بها ، وتدافع عنهم . وتعد القبيلة كتلة واحدة تشترك جميعها في دفع الدية إذا اقتضى الأمر ، وتحاول أن تأخذ بثأر من يصيبه مكروه من أفرادها . والفرد فيها يطيع ويسمع ، فإذا رفض شيئاً لفظته القبيلة وعدّ طريداً ، وقد يأخذ طريقه إلى قبيلة ثانية يتحالف معها ويعد مولى لها . وقد تتحالف قبيلة مع أخرى لصلة في النسب أو لمصلحة ضد قبيلة ثالثة . وربما لفظت قبيلة أحد أفرادها ولم يلجأ إلى غيرها ، وإنما يبقى وحيداً ، يغير على القوافل ، ويسطو على ما ليس له وهذا ما يسمى بالصعلكة ، وقد يلجأ الصعلوك إلى الكسب من الغارة وإعطاء من يجد أنه بحاجة ولا يستطيع الإقدام على ما يقوم به هو لضعف أو عجز أو صغر في السن أو أن تكون امرأة .

ونتيجة للتفاخر بالقبيلة فقد وجد معرفة النسب ، كما وجد لكل قبيلة شاعر يفتخر بأيامها وأحسابها وفضائلها ولها خطيبها أيضاً المدافع عنها لذا كان للأدب دور بارز في تلك الحياة ، وما اشتهر من القصائد ، وأجمع على قوتها علقت على جدران الكعبة فعرفت باسم المعلقات .

ومن حياتهم العامة في الانتقال بالأسفار والسير وراء القطعان فقد رصدوا النجوم وموقع الكواكب ، لتهديهم السبيل في سيرهم ليلاً ، وتأثروا بالقمر الذي

يمدهم بالنور ليلاً حيث يسمرون ، لذا كان التقويم على أساسه ، على حين أن الشمس تعطيهم الحرارة الشديدة التي تجبرهم على البقاء في خيامهم نهاراً . وأعطوا بعض الكواكب أسماء لا تزال مستعملة حتى الآن مثل عطارد والزهرة والثريا والفرقدان و . . . . كذلك فقد كان للقيافة ومعرفة الأثر دور كبير في حياتهم العامة .

وكان لطبيعتهم والانتقال وراء الحيوانات في سبيل المرعى والماء أثر في معرفة الجو وترقب هطول الأمطار ومعرفة الغيوم الممطرة منها والخلب وهو ما عرف بعلم الأنواء .

وأفادوا من النباتات في التداوي ، وكان للكاهن أثر في حياتهم الاجتماعية ومداواة مرضاهم ، هذا بالإضافة إلى النظر في النجوم ، والتطير . . .

أما المجتمع فكان ينقسم إلى طبقات يأتي في رأسها شيوخ القبائل إذ كان لكل قبيلة شيخ لا تخرج القبيلة إلا برأيه ويساعده مجلس من رجال القبيلة أكثرهم من المسنين الذين يعرفون مساقط القطر وأنساب القبائل أكثر من غيرهم هذا بالنسبة إلى البداوة أما بالنسبة إلى سكان المدن فكان يأتي في رأس الطبقات الأغنياء وأصحاب التجارة الذين يستطيعون بأموالهم أن يشتروا العبيد ، وأن تكون لهم الكبرياء في الأرض ، ويضاف إلى الأغنياء الأقوياء الذين لهم عدد من الأولاد والإخوة يستطيعون بهم أن يفرضوا رأيهم ، وأن تكون كلمتهم هي المسموعة ، وإذا خالفهم أحد أرهبوه بالقوة وأسكتوه بالعنف ، لذا يخشى جانبهم وتكون لهم السيادة . وفي مكة بشكل خاص كان يضاف إلى رأس الطبقات سدنة البيت الحرام وحجّابه وحملة لواء قريش . وقد كان قصي بن كلاب سيد قريش هو الذي بيده الحجابة والسدانة وحمل اللواء ، وقد تسلم هذا بعد أن تولى أمر مكة من خزاعة ، وأحدث الرفادة وهي إطعام الحجيج ، والسقاية ، وبنى دار الندوة . فلما كبر قصي وضع هذا الأمر في يد أكبر ولده وهو عبد الدار ، إلا أن الأبناء قد اختلفوا بعد أبيهم ، وانقسمت قريش فرقتين ، ثم

اتفقوا أن تكون الرفادة والسقاية بيد عبد مناف ، وأن تستقر الحجابة واللواء ودار الندوة في بني عبد الدار ، واستمر ذلك حتى جاء الإسلام .

وقريش كلها كانت تفتخر على العرب ، فتقف في مزدلفة على حين تقف بقية العرب في عرفة ، وتجبرهم أيضاً على لباس نوع خاص من الثياب أو تستعير من قريش وإلا كان عليهم أن يطوفوا عرايا ، واستمر ذلك حتى أبطله الإسلام .

أما بقية أفراد المجتمع فكانوا في الدرجة الثانية إلا إذا قوي أحدهم بماله الذي آتاه الله ، أو بعبيده الذين اشتراهم فيما بعد ، أو بقوته حيث يستطيع أن يمنع نفسه . حتى إن الضعيف كثيراً ما كان يخشى الفقر فيقتل ولده أو يئد ابنته خوف الفقر والعار . يضاف إلى هذا العبيد والإماء الذين كانوا يكثرون في كل مكان ، وعلى كاهلهم تقوم الحياة الاقتصادية ، فهم الذين يجلبون النوق والأغنام ، ويزرعون إن كانوا يقيمون في الواحات ، أو يسيرون وراء الحيوانات بإشراف أحد الكبار ، أو يخدمون في القوافل التجارية التي يشرف عليها أحد الزعماء ، وقد يمتهنون مهنة أخرى كالحدادة وغيرها وهذه المهن يأنف المجتمع العربي بأفراده أن يعملوا فيها لذا عليهم أن يوكلوها إلى الأرقاء والعبيد واستمر هذا الوضع حتى جاء الإسلام .

وكانت المرأة على مستوى من الانحطاط لا يصل بها إلى درجة الإنسانية إلا في حالات قليلة ، فكان يتصرف بها كالمتاع ، وكانت الدعارة في صور شتى شأنه في ذلك شأن كل مجتمع جاهلي قديم أو حديث . وقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقالت : « إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته ، فيصدقها ثم ينكحها ، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته - إذا طهرت من طمثها - : أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبينّ حملها أصابها زوجها إذا أحب ،

وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . ونكاح آخر : يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها . فإذا حملت ووضعت ومرّ عليها ليال بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل . والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير ، فيدخلون على المرأة لا تمتنع عمن جاءها . . . وهن البغايا وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ، ووضعت حملها ، جمعوا لها ، ودعوا لهم القافه ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ، ودعي ابنه لا يمتنع عن ذلك .

وكانت الخمرة والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية ، ومن مفاخره كذلك ، وكان يجتمع الكثير من الناس من أجل شرب الخمرة ومعاقرتها ، وتدار الكؤوس . . . وتدور الرؤوس . . . واستمر ذلك حتى جاء الإسلام وحرمها .

وكانوا يفخرون بالكرم الذي يصل في كثير من الأحيان إلى حد الإسراف الذي يجعل المرء بعدها فقيراً معدماً خوفاً من أن ينعت بالبخل أو عدم الكرم على الأقل ، وبقي ذلك حتى جاء الإسلام فنهى عن ذلك الإسراف .

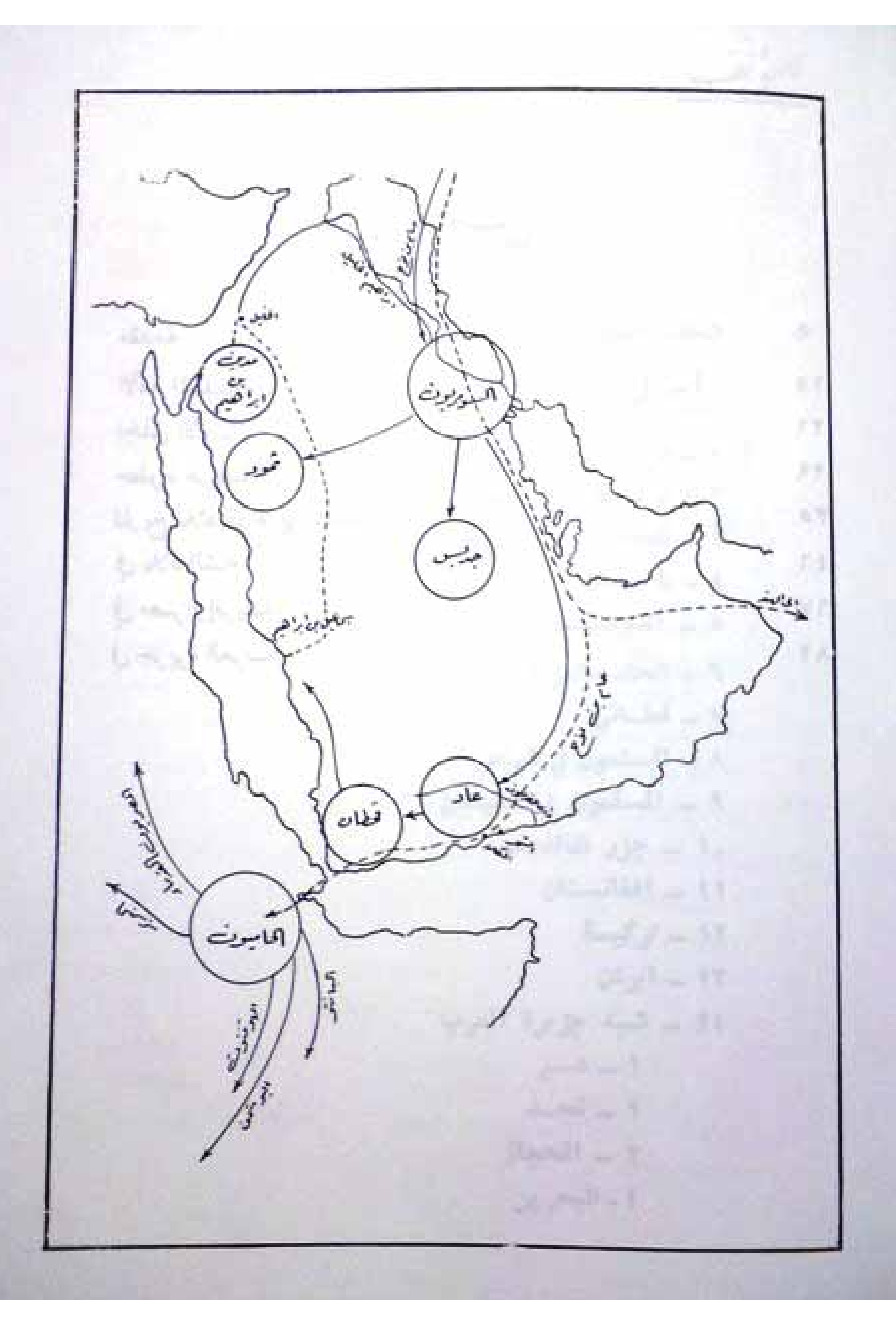
وكان القتال بين القبائل بعضها مع بعض ضد قبيلة أخرى ، وإن أشهر الحوادث الحربية هي التي دارت رحاها بين القبائل العدنانية نفسها أو بينها وبين القبائل القحطانية وقد عرفت باسم أيام العرب ، وقد تحدث بين بطني القبيلة الواحدة كما تم بين عبس وذبيان أو بكر وتغلب ، وأشهر هذه الأيام : أ ـ حرب الفجار التي دارت رحاها بين قيس من جهة وكنانة وقريش من جهة ثانية ، وسميت بحروب الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرام .

٢ً ـ يوم داحس والغبراء : وقد وقعت بين عبس من جهة وذبيان وفزارة من جهة ثانية .

٣ً ـ يوم بعاث : ووقعت بين قبيلتي الأوس والخزرج في يثرب .

٤ً ـ حرب البسوس : ووقعت بين بكر وتغلب . . .

هذا المجتمع كان بأشد الحاجة إلى نبي يأخذ بيده نحو الخير ويهديه السبيل ، كما كان العالم كله بحاجة إلى رسول يعيده إلى الحق بعدمالعبث أهواء الجاهلية فيه فعاش بحالة من البؤس ، وكانت الديانات السماوية قد حرّفت وبدلت وأصبحت تعاليمها الموضوعة وفق أهواء واضعيها ، وكانت الرسالة الجديدة تقتضي أن تكون عامة للبشر جميعاً ناسخة ما قبلها وهذا ما كان برسالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وهو ما نجده في القسم الثاني ـ إن شاء الله ـ .


السومريون
ثمود
جديس
عاد
قحطان
الحاميون

الفهرس